كتاب المنهاج

٢

سلسلة بحوث ثقافية

تصدرها مجلة المنهاج

AL MINHAJ

مع ذي النون في رحلة

العودة إلى الله

الشيخ

محمد مهدي الآصفي

ذي الحجة ١٤١٨ هـ

نيسان ١٩٩٨ م

مع ذي النون في رحلة

العودة إلى الله

الشيخ
محمد مهدي الآصفي

الغدير
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ-١٩٩٨م

الغدير
للطباعة والنشر والتوزيع

حارة حريك ـ بناية البنك اللبناني السويسري
هاتف: ٠٣/٦٤٤٦٦٢ ـ تلفاكس: ٢٧٣٦٠٤ ـ ص.ب ٥٠/ ٢٤
بيروت ـ لبنان

كلمـة أولـى

يضـع «مركز الغدير للدّراسـات الإسلاميّـة»، بين يديّ القـرّاء، سلسلةً جديدة من الكتب، تضاف إلى قائمة منشوراته، اسمها «كتاب المنهاج».

«المنهاج» مجلّة فصليّة يصدرها «مركز الغدير للدّراسات الإسلامية»، وتتضمّن دراسات وبحوثاً معمّقة تتناول قضايا مركزية في الفكر والتراث الإسلاميّين في مختلف مجالاتهما وتخصّصاتهما.

وقد ارتأت هيئة التحرير، في المركز، وفي المجلّة، إدراكاً منها لهذه الحاجة، وفي ضوء آراء الكثير من القراء، وبعد التداول مع عدد من الباحثين الأصدقاء، أن تستلّ دراساتٍ من المجلّة، وتصدر كلّ مجموعةٍ منها في كتاب مستقلّ.

ينطلق هذا المشروع، إضافة إلى ما سبق، من وعي عدّة أمور كان للأصدقاء، قُرّاءً وباحثين، دور في الإشارة إليها، ومنها:

أولاً، تفرض المساحة المحدّدة في المجلّة، في حالات، أن تنشر بعض الدّراسات في حلقتين أو أكثر، ولمّا كانت المجلّة فصليّة، فإن انتظار استكمال البحث يطول، إضافة إلى أنه قد لا يتاح للقارىء متابعة الدّراسة، المنشورة في غير عدد، كاملة.

ثانياً، يدور حوار في كثير من الأحيان، بشأن قضايا كثيرة، وقد ينشر هذا الحوار في غير عدد، ويقتضي الاطلاع عليه كاملاً أن يجمع بين دفتيّ كتاب واحد، ويوضع بين يدي القارىء، لتكتمل الفائدة بمعرفة مختلف وجهات النظر.

ثالثاً، تتناول عدة دراسات تنشر في أعداد متفرّقة عدة قضايا، يشملها موضوع واحد، تكتمل معالجته إن جُمعت هذه الدراسات في كتاب مستقلّ.

رابعاً، كما يرغب القارىء في التنوّع الذي توفّره المجلّة، يرغب أيضاً في التركيز على موضوع واحد، وهذا ما يوفّره الكتاب، وبتحقيق هذا المشروع تُلبّى الرّغبتان المعرفيّتان.

والله وليّ التوفيق.

هيئة التحرير

في رحاب قصة ذي النون عليه السلام

يذكر القرآن قصة العبد الصالح ذي النون عليه السلام في سورة الأنبياء وفي سورة الصّافات وفي سورة ق، وقد ذكر القصة المفسرون، نذكر إجمالاً منها:

لما بعث الله يونس بن متي عليه السلام إلى أهل قرية نينوى وهي قرية من أرض الموصل في شمال العراق، فدعاهم إلى عبادة الله تعالى، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبيّ لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم وفرقوا بين الأمهات وأولادها ثم تضرعوا إلى الله عزّ وجلّ وجاروا إليه، فرفع الله عنهم العذاب.

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم وخافوا أن يغرقوا فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً.

فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ثم ألقى نفسه في البحر فأرسل الله حوتاً يشق البحار حتّى جاء فالتقم يونس فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً فإن يونس ليس لك رزقاً وإنما بطنك تكون له سجناً. ولما صار يونس في بطن

الحوت ظن أنه قد مات، ثم حرّك رجليه فلما تحـركـت سجـد مكانـه ثـم نادى يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس، فمكث في بطن الحوت أربعين يوماً يسبح لله ويدعوه ويقول:

«لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين» فاستجاب الله له دعوته ونجاه من البلاء وأمر الحوت فطرحه في العراء يقول تعالى: ﴿**فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين**﴾، فأنجاه الله من بطن الحوت والحزن الذي كان يعتريه والظلمات التي كان يعيش فيها، وهكذا يفعل الله ذلك بالمؤمنين الذين يقعون في الشدّة ويدعونه منيبين إليه، وقد جاء عن رسول الله ﷺ الترغيب في هذا الدعاء الذي دعا به يونس ربه فاستجاب له.

وفيما يلي طائفة من التأملات في الفقرات الثلاثة لهذا التسبيح:

١ ـ لا إله إلاّ أنت.

٢ ـ سبحانك.

٣ ـ إنّي كنت من الظالمين.

* * *

(١)
لا إله إلاّ أنت

خطابُ العَبْدِ لربِّه

في هذه الكلمة يخاطب العبدُ ربَّه، سبحانه وتعالىٰ، خطاباً حضورياً مباشراً، بإلغاء كل الحجب التي تحجبه عنه، عز شأنه، من دون تكلّف، وببساطة كاملة، هكذا: ﴿**لا إله إلاّ أنت سبحانك**﴾.

ومن عظيم فضل الله، تعالىٰ، على عباده وجميل رحمته، أن يفتح عليهم أبواب خطابه، ولن يكون الإنسان أقرب إلىٰ الله، تعالىٰ، في حال أفضل من حال الخطاب، ولن يلمس حضور الله تعالى في حال أفضل من حال الخطاب، ولن يجد العبد في لذّات القرب والتعامل مع الله لذَّة أفضل من لذّة الخطاب.

إن الله تعالىٰ لا يغيب عن عباده، وهو أقرب إليهم من حبل الوريد، يحول بين المرء وقلبه، ولكن الإنسان قد يغيب عن الله، فلا يشعر بحضوره، فإذا خاطب الله تعالىٰ لمس حضوره بكل مشاعره، وبقلبه وعقله.

والقرآن، خطاب الله للعباد، يفتح أبواب هذا الخطاب عليهم.

وأبرز مصاديق هذا الخطاب في القرآن الدُّعاء، ففيه يتجسَّد هذا الخطاب من ناحية العبد لله تعالىٰ بأجمل صورة، وأروع مشاهدة، تأملوا في هذا الخطاب:

﴿ربَّنا إنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي للإيمانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُم فآمَنَّا ربَّنا فـاْغْفِـرْ لنـا ذُنوبَنَـا وكَفِّر عَنَّا سَيِّئاتِنا وتَوَفَّنا مَعَ الأبرارِ * ربَّنا وآتِنا ما وَعدتَّـنا علـىٰ رُسُلِـكَ ولا تُخْـزِنـا يومَ القيامةِ إنَّكَ لا تُخْلِفُ المِيعَادَ﴾ [آل عمران/ ١٩٣ ـ ١٩٤].

وحال الدعاء من أفضل حالات العبد مع الله، تعالى، لأنَّه يتضمَّن الخطاب. ففي كل دعاء يلجأ العبد إلى الله، ويطلب حاجته منه، ولا يتم هذا اللجوء وهذا الطلب إلاّ بالخطاب.

وحال الصلاة من مصاديق هذا الخطاب. ففي الصلاة يخاطب العبدُ ربَّه، فيقول: ﴿إياكَ نعبُدُ وإياكَ نستعينُ﴾ [الفاتحة/ ٥] ويقول: ﴿أهدِنا الصِّراطَ المستقيمَ﴾ [الفاتحة/ ٦].

إن خطاب العبد لله يعمِّق حضوره عنده، ويعمِّق وعيه لحضور الله، تبارك وتعالى.

ومن هذا الحضور، ومن هذا الوعي ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى من لذَّة القرب والخطاب والعلاقة بالله تعالىٰ.

ففي كل صلاة كان رسول الله ﷺ يلمس لقاء الله، ومن هذا اللقاء كان يجد لذّة ومتعة هما قرَّة عينه ﷺ.

ففي كل صلاة لقاء لله، وفي كل لقاء يخاطب الله، تعالىٰ، عبده ويخاطب العبدُ ربَّه، وليس شيء في هذا الكون كله، في الدنيا والآخرة، يعادل هذا الخطاب المتبادل بين الله تعالى وعبده.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «وقرَّة عيني الصلاة».

ومن بؤس الإنسان وشقائه أن يفتح الله تعالىٰ على عباده أبواب هذا الخطاب في الصلاة والدعاء، ويرفع ما بينه وبين عبده من

الحُجُب ويدعوه إلىٰ خطابه، ويأذن له بذلك ويستجيب لخطابه ودعائه، رغم هذا الفاصل اللامتناهي الذي يفصل العبد عن الله. . . ثم لا يَعِي العبدُ قيمةَ هذا الخطاب، ولا يشعر بما يتضمَّنه من لذَّة وقرَّة عين.

حلقات التَّوحيد الثلاث

لا إله إلا أنت

هذه الكلمة هي كلمة التوحيد، وهي الفاصل بين التوحيد والشرك. والتوحيد ثلاث مسائل:

توحيد السيادة والسلطان لله في الكون، ونفي أي سلطان وسيادة لغير الله تعالىٰ في الكون، في عرض سلطان الله. وهذه هي الحلقة الأولىٰ من حلقات التوحيد الثلاث.

والحلقة الثانية هي توحيد الولاية والسيادة التشريعية لله تعالىٰ على حياة الإنسان، بدليل ولايته تعالى وسيادته التكوينية علىٰ الكون. فلا يكاد ينفك هذا التوحيد عن ذلك التوحيد.

فإن الذي يحكم الكون كلّه، بما في ذلك الإنسان، يحكم لا محالة حياة الإنسان، وحركته ونظام حياته وعلاقاته، وبالتالي يحكم المساحة التشريعية من حياته.

وتوحيد ولاية الله تعالى على الإنسان يستتبع توحيد الطاعة من الإنسان لله، فلا طاعة لغير الله على الإنسان، وليس في هذا الكون

من يستحق الطاعة على الإنسان غير الله تعالى، إلاّ أن يكون بأمر من الله وإذنه، هي الحلقة الثّالثة من حلقات التوحيد.

وهذه ثلاث حلقات من التوحيد.

توحيد المآب والمفزع

فأي معنى من هذه المعاني الثلاثة كان يقصد العبدُ الصالح ذو النّون عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو في بطن الحوت؟

في رأيي أن ذا النون عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قد تجاوز هذه المراحل الثلاث من التوحيد. وكان يخاطب الله تعالىٰ في بطن الحوت في ظلمات ثلاث بمعنى آخر من التوحيد، وهو توحيد «المفزع» و «المآب» و «المفر».

فإن العبد إذا عصىٰ مولاه، وخاف على نفسه من غضبه، يسعىٰ إلى الفرار من سخطه، ويبحث عن مفزع وملجأ، فهل يجد العبد مفزعاً يفزع إليه من غضب الله غير الله تعالىٰ؟

وإذا كانت تنهي رحلة النّزق والهوى الإنسان إلىٰ الشيطان، فإن رحلة «الفزع» و«الندم» لا بد من أن توصله إلى الله تعالىٰ.

ولا يجد الإنسان في هذه الرحلة مفزعاً، يفزع إليه غير الله، ولا ملجأ يحميه من غضب الله غير رحمة الله تعالىٰ.

وهذا هو توحيد «المفزع» و «المفر» و «المآب» في حياة الإنسان.

إن ذا النون عَلَيْهِ السَّلَامُ يطوي في بطن الحوت آخر مراحل التوحيد... وآخر مراحل التوحيد توحيد «المآب» و «المفزع».

فيقر بٱستحالة الفرار من الله، وأين يفر العبد من قبضة الله وسلطانه؟ وهل في هذا الكون الرحيب مكان لا يمتد إليه سلطان الله ونفوذه وقدرته؟ وهل هناك مكان لا يحكمه الله؟!.

ويقر ثانياً بأنه لا يحميه من غضب الله مفزع، ولا معاذ، ولا ملجأ، ولا حمىٰ إلاّ الله.

وعي توحيد المعاذ

ووعي توحيد «المعاذ» من درجات الوعي التوحيدي العالية، وقمَّة شامخة من قمم وعي التوحيد، لا يؤتاها إلاّ القليل.

وقد رزق الله تعالىٰ العبد الصالح ذا النون عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه القمَّة الشامخة من الوعي في بطن الحوت.

كما رزق الله تعالىٰ موسىٰ بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ النبوّةَ في سيناء.

وكان بعض أرباب الذوق يقول: كان للعبد الصالح ذي النون عروج إلىٰ الله، كان لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عروج إلى الله، غير أن عروج رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان إلى المسجد الأقصىٰ ثم إلى السماء، وعروج العبد الصالح ذي النون كان من بطن الحوت في ظلمات ثلاث.

ومن عجب أن العبد، في هذه الحالة، خائف من غضب الله يبحث عن طريق للفرار، غير أنه لا يجد غير الله تعالى ملجأ وملاذاً يلوذ به.

وهو من أرق معاني التوحيد وأصفاها وأنقاها.

وقد ورد في نصوص الأدعية المأثورة، عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، الإشارة إلىٰ هذا المعنى كثيراً.

ففي المناجاة الرابعة من المناجاات الخمس عشرة للإمام علي بن الحسين، زين العابدين، عليه السلام: «يا من كل هارب إليه يلتجىء، وكل طالب إياه يرتجي، يا خير مرجو، وأكرم مدعو، يا من لا يرد سائله، ولا يخيب آمله، يا من بابه مفتوح للداعين، وحجابه مرفوع للراجين».

في هذه الرحلة: «رحلة العودة إلى الله»، يعي الإنسان أمرين:

يعي أنه يستحق مقت الله وغضبه، ولا بد له من ملجأ ومعاذ يلجأ إليه ويعوذ به.

ويعي أن لا ملجأ له ولا معاذ من الله غير الله.

وهذه هي حالة الفرار من غضب الله إلى الله والإعاذة بالله من غضب الله، وهي من مراتب التوحيد العالية، ومن أرق مفاهيم التوحيد.

وقد ورد في المناجاة الشعبانية التي كان يحرص عليها أهل البيت عليهم السلام: «إلهي أعوذ بك من غضبك».

وفي المناجاة الخامسة من المُناجَيات الخمس عشرة المعروفة: «وها أنا متعرِّض لنفحات روحك وعطفك، ومنتجع غيث جودك ولطفك، فارٌّ من سَخَطِكَ إلى رضاك، هاربٌ منك إليك».

وفي المناجاة الشعبانية أيضاً: «إلهي أنا عبد أتنصل إليك مما كنت أواجهك به من قلّة إستحيائي».

وفي دعاء أبي حمزة: «وأنا ياسيدي عائذ بفضلك، هارب منك إليك، متنجز ما وعدت من الصفح عمن أحسن بك ظناً».

وتشبه هذه الحالة، لدى الراشدين الموحِّدين حالة الطفل الذي تسخط عليه أمه، وتغضب عليه، فينظر يميناً ويساراً ليبحث عن ملجأ يلجأ إليه ليحميه من غضبها، وسخطها، فلا يجد في دنياه الصغيرة ملجأ يلجأ إليه ومعاذاً يعوذ به أكثر أمناً وأكثر حناناً من حضنها، فيلجأ إليها منها، ويعوذ بها منها.

وهذه الحالة في علاقة الطفل بأمِّه من أرق حالات الطفولة.

ولو أن الكبار كانوا يملكون مثل هذا الوعي في علاقتهم بالله لما تردَّدوا لحظة واحدة في العودة والتوبة إليه، في أية مرحلة كانوا من مراحل الإباق والتمرُّد والمخالفة.

ويقبح بالراشدين ألاَّ يعوا، في علاقتهم بالله تعالى، ما يعيه ذلك الطفل من علاقته بأمه من سذاجة وبراءة.

وهذه هي حالة العبد الذي أَبِقَ، وخرج من بيت مولاه، فعانى من الضياع والعذاب، ولم يجد مَن يأويه، ويعطف عليه، ويستره، ويشعره بالعطف والرحمة غير مولاه، فيعود إليه من جديد، علىٰ استحياء، يطرق الباب ويواجه مولاه مُطرِقاً على خجل، لا يحد ما يقول.

ولا يعرف عذراً ليعتذر به عن إباقه وخروجه من حمى مولاه، غير أن يتشبَّث بكرمه وعطفه ورحمته.

تأمّلوا في هذه الفقرة الشفّافة من المناجاة الأولىٰ من المُناجَيات الخمس عشرة:

«فوعزتك ما أجد لذنوبي سواك غافراً، ولا أرى لكسري غيرك جابراً. فإن طردتني عن بابك فبمن ألوذ؟ وإن رددتّني عن جنابك

فبمن أعوذ؟ فوا أسفاه من خجلي وافتضاحي، ووالهفاه من سوء عملي واجتراحي، إلهي هل يرجع العبد إلاّ إلى مولاه؟ أم هل يجيره من سخطه أحد سواه؟. لك العُتبىٰ حتى ترضى».

«إلهي أنت الذي فتحت لعبادك باباً إلى عفوك، سمَّيته التوبة. فقلتَ: ﴿توبُوا إلى اللهِ تَوْبةً نَّصوحاً﴾ [التحريم/٨]، فما عذر من أغفل دخول الباب بعد فتحه؟

إلهي إن قَبُحَ الذنبُ من عبدك، فليحسن العفو من عندك...

إلهي ما أنا بأول من عصاك فتبتَ عليه، وتعرَّض لمعروفك فجُدتَّ عليه.

يا مجيبَ المضطر، يا كاشفَ الضُّر، يا عظيمَ البِر، يا جميل السِتْر).

وهذه رحلة العودة إلى الله.

وللإنسان إلى الله رحلتان.

رحلة الإقبال، ورحلة العودة، ولرحلة العودة إلى الله أدب، وأصول، كما للإقبال على الله أدب وأصول.

ونتحدث الآن عن أدب العودة إلى الله.

أدب العودة إلى الله

وللعودة إلى الله كما قلنا رحلتان، رحلة الإقبال ورحلة العودة، ولكل منهما أدب وأصول. وإذا فقد الإنسان الأدب مع الله في أي من هاتين الرحلتين، لا يبلغ غايته في تلك الرحلة.

وللإقبال على الله أدب ونهج وأصول.

تأملوا في هذه الفقرات الواردة في زيارة (أمين الله):

«اللهم، إنَّ قلوب المخبتين إليك والهة، وسُبل الراغبين إليك شارعة، وأعلام القاصدين إليك واضحة، وأفئدة العارفين منك فازغة، وأصوات الداعين إليك صاعدة، وأبواب الإجابة لهم مفتَّحة، ودعوة من ناجاك مُستجابة».

ومن المناجاة الخامسة من المُناجَيات الخمس عشرة:

«أتيتك طامعاً في إحسانك، راغباً في إمتنانك، قاصداً جنابك، وارداً شريعة رفدك، وافداً إلى حضرة جمالك، مريداً وجهك، طارقاً بابك، مستقبلاً لعظمتك وجلالك».

هذه بعض نماذج أدب «الإقبال على الله». أما أدب «العودة إلى الله» فهو يختلف بعض الشيء عنه.

إن الإنسان، إذا عاد إلى الله، يكون حاله كالعبد الآبق الذي يرجع إلىٰ مولاه، نادماً عائذاً به، خَجِلاً، مستحيياً، منكسراً، مقرّاً، معترفاً... كذلك يرجع العبد العاصي إلى الله تعالى نادماً تائباً.

عناصر أدب العودة إلى الله

للعودة إلى الله، كما ذكرنا، أدب خاص بها. له مفردات وعناصر ورد ذكرها في نصوص الأدعية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام، وسوف نذكر، في ما يلي، بعضاً من النصوص الجامعة لطائفة من عناصر أدب العودة إلى الله تعالىٰ، لنعقبه بعد ذلك باستعراض موجز لأهم عناصر العودة إلى الله سبحانه.

النُّصوص الجامعة لمفردات أدب العودة إلى الله

وقد ورد في الدعاء الذي علّمه أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام لكميل بن زياد النّخعي بعض هذه الحالات الّتي تلازم العبد المذنب حال عودته إلى الله، وهي من آداب رحلة العودة.

يقول أمير المؤمنين في هذا الدعاء:

«وقد أتيتك، يا إلهي، بعد تقصيري وإسرافي على نفسي معتذراً، نادماً، منكسراً، مستقيلاً، مستغفراً، منيباً، مُقراً، مذعناً، معترفاً، لا أجد مفراً مما كان مني، ولا مفزعاً أتوجه إليه في أمري غير قبولك عذري، وإدخالك إياي في سعة رحمتك».

وفي دعاء الأسحار:

«يا ربِّ إرحم دعائي، وتضرعي، وخوفي، وذُلّي، ومسكنتي، وتعويذي، وتلويذي».

وفي النص التالي، من دعاء الأسحار في شهر رمضان، ورد ذكر طائفة من أهم عناصر أدب العودة إلى الله:

«يا ربِّ، هذا مقام العائذ بك من النار. هذا مقام المستجير بك من النار، هذا مقام المستغيث بك من النار. هذا مقام الهارب إليك من النار. هذا مقام من يبوء لك بخطيئته، ويعترف بذنبه، ويتوب إلى ربِّه. هذا مقام الخائف المستجير. هذا مقام المحزون المكروب، هذا مقام المغموم المهموم. هذا مقام الغريب الغريق. هذا مقام المستوحش الفرق، هذا مقام من لا يجد لذنبه غافراً غيرك، ولا لضعفه مقوياً إلاّ أنت، ولا لهمِّه مفرِّجاً سواك. يا الله، يا كريم،

لا تحرق وجهي بالنار، بعد سجودي لك، وتعفيري بغير مَنٍّ مني عليك».

مفردات أدب العودة إلى الله في النصوص الإسلامية

وأهم عناصر أدب العودة إلى الله أربعة عشر عنصراً، استخرجناها من نصوص الأدعية المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام وفي كلمات أهل البيت عليهم السلام وأدعيتهم كنوز من وعي التوحيد وفقه التوحيد، قلما نجده في مصدر آخر.

وهذه العناصر هي:

١ ـ الإعتراف والإقرار.

٢ ـ الإعتذار.

٣ ـ الإستحياء.

٤ ـ قبول العتبى.

٥ ـ حسن الظن بالله.

٦ ـ الذل والانكسار.

٧ ـ الطمع في رحمة الله.

٨ ـ الخوف من الله.

٩ ـ العزم على العودة.

١٠ ـ الحزن والبكاء.

١١ ـ الإسترحام.

١٢ ـ الفرار إلى الله والإستعاذة به.

١٣ ـ الإستغفار.

١٤ ـ الإضطرار إلى الله.

١٥ ـ الندم.

وفي ما يلي إشارة موجزة إلى بعض النصوص الواردة في كل واحدة من هذه المفردات الأربع عشرة، ليتسنىٰ لنا أن نتبيَّن، إن شاء الله، مفردات العودة إلى الله، في ضوء نصوص الأدعية، عسى أن يرزقنا الله تعالىٰ «العودة» ووعيها.

١ـ الإعتراف والإقرار

والمفردة الأولى من هذه العناصر هي الإعتراف والإقرار، وهي بداية البداية والخطوة الأولى على طريق العودة، ومن دونها لا تتحقَّق هذه.

ورحم الله العبد الصالح ذا النون عليه السلام، حيث بدأ رحلة العودة إلى الله بالإقرار بـ﴿إني كنت من الظالمين﴾.

الشَّرط الأول في العودة إلى الله: «الإعتراف»، والشرط الثاني: «الإعتذار». وفي مقابل «الإعتراف» «الإنكار» وفي مقابل «الإعتذار» «التسويغ». وكل من «الإعتراف» و«الإعتذار» جميل، وكل من «الإنكار» و«التسويغ» قبيح، وليس الإنكار قبيحاً فقط لأن الله تعالى يعلم السر وخفايا أعمال عباده، وما توسوس صدورهم، وإنما لأن «الإنكار» نحو من العناد واللجاج والإستكبار، والله تعالى يمقت اللجاج والعناد والاستكبار.

ورأس مال الإنسان بين يدي الله أحد اثنين: «عمل صالح»، إذا كان عمله عملاً صالحاً، و «الإعتراف بالسيئات» إذا كان لا يملك عملاً صالحاً، إذا كان الإعتراف بالسيئات يقترن بذل الإنكسار بين يدي الله، ويتضمَّن العودة إلى الله تعالىٰ. فإن الإنسان يرفع إلى الله

«العمل الصالح» ويرفع إلى الله فقره وحاجته وضعفه وإنابته إليه تعالىٰ، وكل منهما يصعد إلى الله: العمل الصالح والإحساس بالفقر والحاجة والإنابة. والإخلاص لله يرفع العمل الصالح إلى الله، كما أنَ «العجب» و «الرياء» يحبطان العمل الصالح ويفسدانه. فإذا اقترن العجب والرياء بالعمل الصالح أفسداه وأسقطاه وأحبطاه. فإذا تجرد الإنسان من «العجب» لم يجد ما يقدِّمه إلى الله تعالى غير فقره وحاجته واعترافه بسيئاته. ومن عجب أن الله تعالى يبدِّل سيّئات العبد من حال الاعتراف والانكسار إلى حسنات يقول تعالىٰ:

﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان/ ٧٠].

ما هذا الانقلاب؟ وكيف تم هذا الانقلاب والتبديل؟

الجواب: إن هذا الانقلاب يحدث بسبب شعور العبد بالندم والفقر والحاجة إلى الله وبالانكسار بين يديه.

ففي دعاء أبي حمزة «إلهي إن كان قد دنا أجلي، ولم يقرِّبني منك عملي، فقد جعلت الاعتراف إليك وسائل عللي». ومن عجب أن يتقرَّب العبد إلى الله بالعمل الصالح، والاعتراف بالسيئات.

إذن بداية العودة إلى الله «الإعتراف بالذنب». وهذه البداية توطىء الإنسان لنزول رحمة الله، ولولا هذه البداية لم يتمكَّن ذا النون عَلَيْهِ السَّلَامُ من أن يواصل هذه الرحلة إلى شوطها الأخير.

وقد جعل ذا النون عَلَيْهِ السَّلَامُ إقراره هذا ذريعة إلى رحمة الله الواسعة.

ومن عجبٍ أن يكون الإقرار بالذنب ذريعة إلى رحمة الله كما أن فعل الصالحات ذريعة إلى تلك الرحمة. وللعلاقة بالله، تعالى، شؤون وأسرار لا يعيها إلاّ مثل ذي النون عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إن الإقرار بالذنب، والإعتراف بالإثم بين يدي الله تعالى يكسر من شموخ الإنسان، ويضع من كِبَرِهِ، وينقله من موقع الشموخ والاستعلاء إلى موقع العبودية والفقر بين يدي الله، حيث تنزل رحمة الله على عباده.

وقد ورد ذكر الاعتراف والإقرار كثيراً في المأثور من أدعية أهل البيت عليهم السلام.

ففي الدعاء الذي يرويه أبو حمزة الثمالي عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

«أنا المذنب الذي سترته، والخاطىء الذي أقلته، أنا يا رب الذي لم أستحيك في الخلاء، ولم أراقبك في الملاء، أنا صاحب الدواهي العظمى، أنا الذي على سيده اجترى، أنا الذي عصيت جبار السماء، أنا الذي أعطيت على الجليل الرُشا، أنا الذي حين بشرت بها خرجت إليها أسعى، أنا الذي أمهلتني فما ارعويت، وسترت عليّ فما استحيت، وعملت بالمعاصي فتعديت، وأسقطتني من عينك فما باليت، فبحلمك أمهلتني، وبسترك سترتني، حتى كأنّك أغفلتني، ومن عقوبات المعاصي جنَّبتني، حتى كأنّك استحييتني».

وفي الدُّعاء الذي علّمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لكميل بن زياد.

«اللّهم عَظُمَ بلائي، وأفرط بي سوء حالي، وقصرت بي أعمالي، وقَعُدَتْ بي أغلالي، وحبسني عن نفعي بعد أملي، وخدعتني الدنيا بغرورها، ونفسي بجنايتها ومطالي يا سيدي».

ومن المناجاة الأولى:

«إلهي ألبستني الخطايا ثوبَ مذلّتي».

٢ ـ الاعتذار

«الإعتذار» مقابل «التسويغ» والاعتذار بين يدي الله تعالى جميل، والتسويغ قبيح. ولا بدَّ لهذا الإجمال من إيضاح، فأقول:

الفرق بين «التسويغ» و «الإعتذار».

إن الاعتذار توجيه للعمل مع الاعتراف بالخطأ، والتسويغ توجيه للعمل من دون الاعتراف بالخطأ. والله تعالىٰ يحب العذر ويكره التسويغ لأن التسويغ نحو من المكابرة في تصحيح الخطأ.

وليس المهم كيف يكون الاعتذار، وإنَّما المهم أن يكون العبد بصدد الاعتذار، وليس بصدد اللجاج والعناد والمكابرة.

ويتم الاعتذار حتى بالاعتذار والإقرار:

«إلهي مِنّي لؤمي ومنك كرمك».

والله تعالىٰ كريم لا يردُّ عذر العبد إذا علم منه العودة والندم، مهما كان عذره، حتى لو كان عذره إقراراً باللؤم وقلّة الحياء والصَّلف.

وقد يعتذر العبد بكرم وجه الله، وهو اعتذار جميل يناسب جمال وجه الله، فيعتذر العبد إلى الله كأنه لم يعصِه حينما عصاه متمرِّداً على الله، مستخفاً بأمره، مستهيناً بسلطانه وحكمه، وإنما عصاه إذ عصاه واثقاً برحمته وفضله وستره.

تأملوا في هذه اللوحة الرائعة من دعاء أبي حمزة الثمالي:

«وما أنا يا رب؟ وما خطري؟ هَبْني بفضلك، وتصدَّق عليَّ بعفوك، أي رب جلِّلني بسترك، واْعفُ عن توبيخي بكرم وجهك، فلو اطلع اليوم على ذنبي غيرك ما فعلته، ولو خفت تعجيل العقوبة لاجتنبته، لا لأنك أهون الناظرين إليّ، وأخف المطلعين عليّ، بل لأنك يا رب خير الساترين، أحكم الأحكمين وأكرم الأكرمين، ستّار العيوب، غفّار الذنوب، تستر الذنب بكرمك، وتؤخِّر العقوبة بحلمك، فلك الحمد على حلمك بعد علمك، وعليَّ عفوك بعد قدرتك، ويحملني، ويجرؤني على معصيتك حلمك عني، ويدعوني إلى قلّة الحياء سترك عليّ ويسرعني إلى التوثّب على محارمك معرفتي بسعة رحمتك وعظيم عفوك».

وما أجمل هذا العذر «ويدعوني إلى قلة الحياء سترك عليّ».

وفي دعاء أبي حمزة أيضاً:

«إلهي لم أعصك حين عصيتك، وأنا بربوبيتك جاحد، ولأمرك مستخف، ولا لعقوبتك متعرض، ولا لوعيدك متهاون، ولكن خطيئة عرضت وسوّلت لي نفسي، وغلبني هواي، وأعانني عليها شقوتي، وغرني سترك المُرخىٰ عليّ».

والأمر هنا دقيق، رقيق، وحساس في مقام الاعتذار إلى الله. فهناك ما لا يصح الاعتراف به والاعتذار عنه. وهناك ما يصح الاعتراف به والاعتذار عنه.

أما ما لا يصح الاعتراف به والاعتذار فهو الاستهانة بأمر الله وسلطانه والاستهانة بوعيد الله وعذابه وقهره.

«لا لأنك أهون الناظرين وأخف المطَّلعين».

«لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد ولا لأمرك مستخف، ولا لعقوبتك متعرض».

فهذا ما لا يجوز الاعتراف به والاعتذار عنه مطلقاً، لأنه يمس التوحيد، وهو ما لا يرتضيه الله تعالى لعباده.

وهذه الفقرات من دعاء أبي حمزة تتضمَّن مفاصل هامَّة وحسَّاسة. فهي:

أولاً: تواضع وتصاغر بين يدي الله تعالىٰ: «وما أنا يا رب؟ وما خطري؟». استعانة بصاحب الذنب. والاستهانة بالذنب أمر قبيح والإستهانة بمرتكب الذنب أمر جميل.

ثانياً: استرحام وإستغفار. «هبني بفضلك وتصدَّق عليّ بعفوك، أَيْ رب جلّلني بسترك... واعفُ عن توبيخي بكرم وجهك».

نسأله أن يعفو عنا فلا يعاقبنا بسيئات أعمالنا ولا يحاسبنا عليها، ولا يذكرنا بها حتىٰ لا يخجلنا، والكريم لا يعاقب المذنب إذا تاب، ولا يذكِّره بذنبه لئلا يخجله ويحرج موقفه بين يديه.

ثالثاً: اعتراف «فلو اطلع اليوم على ذنبي غيرك ما فعلته».

رابعاً: نفي لشبهة الشرك والاستهانة بعظمة الله وجلاله: «لا لأنك أهون الناظرين وأخف المطلعين عليّ».

خامساً: الاعتذار بأجمل العذر: «بل لأنك يا رب خير الساترين.. ستّار العيوب، غفّار الذنوب». وهو عذر جميل، وقد ورد في الحديث في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**يا أَيُّها الإنسانُ ما غَرّكَ بِربِّكَ الكَريمِ**﴾ [الإنفطار/ ٦].

إن الله تعالىٰ يلقِّن العبد العذر الجميل في هذه الآية بأن كرمه تعالى هو الذي غرَّنا على معصيته.

وفي دعاء أبي حمزة: «إلهي لم أعصك حين عصيتُك، وأنا بربوبيتك جاحد، ولا لأمرك مستخف، ولا لعقوبتك متعرِّض، ولا لوعيدك متهاون، ولكن خطيئة عرضت، وسوَّلت لي نفسي، وغلبني هواي، وأعانني عليها شقوتي، وغرَّني سترك المُرخىٰ عليّ».

٣ـ الإستحياء

يعود العبدُ المذنب من رحلة الهوىٰ والعصيان إلى الله على خجل واستحياء، فهو لا يجد عذراً يُقدِّمه إلى الله تعالىٰ غير الاعتراف بسوءاته وسيِّئاته، ولا يجد في حياته عملاً صالحاً يقدمه إلى الله، غير سواد القلب والوجه، وإن العبد ليعصي الله فيستحي أن يعود، ويشقّ عليه أن يرجع ويخاطب الله تعالى لما سبق منه من سوء الفعل والقول، ولكن إذا لم يجد بداً من العودة، ولم يجد باباً آخر يطرقه غير باب الله تعالى، ولم يجد ملجأ يلجأ إليه إلىٰ الله، عاد مطرقاً، حيياً خجولاً. وجاء من المناجاة الأولى:

«فوأسفا من جلي وافتضاحي، ووالهفاه من سوء عملي واجتراحي».

٤ ـ قبول العتبى

عندما يغضب العبد مولاه ويخشى أن ينفجر سخط مولاه عليه فيحرقه يسعى إلى أن يخفف من حدة غضبه عليه بالعتاب، فإن العتاب يمتص الغضب والسخط كثيراً فيعطي من نفسه لعتاب مولاه، ويثير مولاه للعتاب حتّى يمتص العتاب غضبه وسخطه ويطلب منه

أن يعاقبه فيعاتبه حتّى يرضى عنه. (لك العتبى، لك العتبى حتّى ترضى[1]).

فإذا بدأ المولىٰ بالعتاب أحَسَ العبد بالإنفراج فإن الغضب المكتوم يحرق العبد، أما إذا بدأ المولى يعبر عن غضبه بالعتبىٰ أَحَسَ بالأمن والانفراج.

٥ ـ حسن الظن بالله:

وهو من متطلبات (العودة إلى الله)، ولا يمكن أن يعود الإنسان إلى الله من غير حسن الظن بالله، وكل إنسان يأخذ من الله بقدر ما يحسن الظن بالله.

وفي دعاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام نلتقي صورة رائعة من صور حسن الظن بالله تعالى، ننقل منها أربع فقرات:

١ ـ (إلهي من الذي نزل بك ملتمساً قراك فما قربته، ومن الذي أناخ ببابك مرتجياً نداك فما أوليته؟)

وهذه هي الفقرة الأولى من هذه اللوحة. ويقول الأول: هل نزل بك، إلهي، أحد من خلقك يلتمس قراك وضيافتك فما قريته؟

والطلب على نحوين: طلب من يوف لحاجة وجدها من العلاج إن لم يستحب المسؤول لطلبه، أو لا تكون حاجته ملحّة، وصاحب هذا الطلب يسأل ويطلب فإن لم يستحب المسؤول لطلبه فر، ولم يتوقف عند طلبه وسؤاله.

والنحو الآخر من الطلب، الطلب المضطر الذي لا يجد بدّاً من الطلب ولا يعرف وجهاً لعلاج أمره غير أن يستجيب المسؤول لطلبه

فينزل بحاجته عند باب المسؤول ويقيم ببابه، وإن لم يستجب المسؤول لحاجته لا يرحل عنه، وكيف يرحل عنه، وأين رحل وهو لا يعرف علاجاً لمشكلته إلى أن يستجيب له.

وهذه حالة المضطر، التي يتنزل بحاجته ولا يرحل... وهي حالة مألوفة إلى الآن في حاجة الناس بعضهم إلى بعض حيث ينزل السائل بباب المسؤول، وينيخ ببابه، ولا يرحل إلاّ بحاجته.

والإمام علي بن الحسين عليه السلام ينزل بحاجته إلى الله نزول المضطر الذي لا يجد بدّاً من قضاء حاجته، ولا يعرف لقضائه وجهاً آخر غير أن يستجيب الله لدعائه فيقول:

(إلهي من الذي نزل بك ملتمساً قراك فما قريته؟ ومن الذي أناخ ببابك مرتجياً نداك فما أوليته؟).

٢ ـ ثم يقول عليه السلام: (أيحسن أن أرجع من بابك بالخيبة مصروفاً، ولست أعرف سواك مولى بالإحسان موصوفاً؟)

وفي هذه الفقر يقول الإمام عليه السلام أيحسن، إلهي، أن ينزل العبد حاجته ببابك ثم تصرفه عن بابك بالخيبة؟

فإذا ألجأت الحاجة والفقر العبد إلى النزول بباب مولاة، فلا يحسن بكرم المولى ورحمته أن يصرف عبده من بابه خائباً.

٣ ـ (وكيف أرجو غيرك والخير كله بيدك؟ وكيف أؤمل سواك والخلق والأمر لك؟ وإلى أين أرجع من بابك؟ وإلى أين تصرفني عن بابك؟ والأمر والخير والسلطان والغنى والرحمة والفضل كله منك وببابك؟ ولست أعرف غير بابك باباً أطرقه ولا غير رحابك رحاباً أنزله ولا غير فضلك فضلاً أرجوه).

٤ ـ (أأقطع رجائي منك وقد أوليتني ما لم أسأله من فضلك؟ أم تفقري إلى مثلي وأنا أعتصم بحبلك؟ أأقطع رجائي منك أم تكلني إلى إنسان مثلي في فقره وحاجته وقد أوصلت حبلي بحبلك واعتصمت بك؟).

نموذج آخر:

واشفع هذه اللوحة بلوحة أخرىٰ من روائع الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام من حسن الظن بالله من المناجاة الخامسة من الخمسة عشر. (إلهي إن كان قد قلَّ زادي في المسير إليك، فلقد حسن ظني بالتوكل عليك. وإن كان جرمي قد أخافني من عقوبتك فإن رجائي قد أشعرني بالأمن من نقمتك، وإن كان ذنبي قد عرضني لعقابك فقد آذانني حسن ثقتي بثوابك.

وحسن الظن بالله، والرجاء من الله بجبران الكسر الحاصل للعبد من ذنوبه وآثامه، ويسدان النقص الحاصل للعبد من قلة الزاد.

وحسن الظن بالله، والتوكل عليه يسدّان النقص الذي يجده العبد في زاده في المسير الطويل.

(إن كان قد قل زادي في المسير إليك فلقد حسن ظني بالتوكل عليك).

ورجاء العبد من الله يجبر الكسر الحاصل للعبد من ذنوبه وآثامه (وإن كان جرمي قد أخافني من عقوبتك فإن رجائي قد أشعرني بالأمن من نقمتك).

وليس فقط يجبر (الرجاء) الكسر الحاصل من الذنوب، وإنما يبدل شعور العبد بالخوف من غضب الله إلى الإحساس بالأمن من نعمته.

صورة ثالثة:

وفي دعاء الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في أسحار رمضان الذي علمه لأبي حمزة الثمالي:

(يا رب هذا مقام من لاذ بك، واستجار بكرمك، وألف إحسانك ونعمك، وقد توثقنا منك بالصفح القديم، والفضل العظيم، والرحمة الواسعة، أفتراك يا رب تُخْلِفُ ظنوننا، أو تخيب آمالنا؟

كلا يا كريم! فليس هذا ظننا بك ولا هذا فيك طمعنا، إن لنا فيك أملاً طويلاً كثيراً. إن لنا فيك رجاءُ عظيماً، عصيناك، ونحن نرجو أن تستر علينا، ودعوناك ونحن نرجو أن تستجب لنا فحقق رجاءنا مولانا).

وهذه بعض مقامات العبودية:

مقام الأمن، ومقام الإنس، ومقام الركون والثقة ولا بد للعبد أن يشعر في قيامه بين يدي الله تعالى بهذه المقامات، ولنعيد ذكر هذه المقامات في كلام سيد الساجدين وزين العابدين عليه السلام:

(هذا مقام من لاذ بك، واستجار بكرمك).

وهو (مقام الأمن) فإذا لاذ العبد بربه واستجار بكرمه من غضبه أحسَّ بالأمن. ثم يقول عليه السلام:

(وألِفَ إحسانك ونعمك).

وهذا (مقام الإنس) فلا يأنس الإنسان بأحدكما يأنس بالذي ألف إحسانه وكرمه، كما يأنس الإنسان بأمه وأبيه. ثم يقول عليه السلام:

(عصيناك ونحن نرجو أن تستر علينا).

وهذا (مقام الركون والثقة) فإن أقبح حالات العبد وأبعدها عن الله حالة المعصية والمخالفة. فإذا كانت الثقة بالله والركون بفضله لا يفارقه حتّى في حالة المعصية والمخالفة فهو من المقيمين مقام الركون والثقة. وقبيح على العبد يعصي ربه وهو يراه حاضراً شاهداً. وجميل من العبد أن لا تفارقه الثقة بالله وبستره وفضله حتّى في حالة المعصية.

ولا ينفي ذلك القبيح جمال هذا الجميل، ولعل هذا الجميل يكون سبباً في إقلاعه في ذلك القبيح.

إن اليأس قطع الرجاء عن الله في حالة الذنب والمعصية أعظم من الذنب نفسه. ومهما كانت جريمة الإنسان بين يدي الله تعالى فلا يجوز ولا يصح أن يقطع رجاءه عن الله حتّى في أقبح حالاته مع الله، وهو حالة المعصية والقبح.

٦ ـ الذُّلّ والانكسار

للعودة إلى الله تعالىٰ أسرار وأصول ومنهج، فمن أحسن استخدام تلك الأصول وذلك المنهج، يسّر الله تعالى أَمامه أسباب العودة، ومن لم يحسن ذلك يبوء بالخسران.

ومن أسرار العودة ومناهجها حالة الذل والانكسار بين يدي الله تعالى، ولن يكون العبد أقرب إلى الله في حال، ولا أسرع في الرحلة إليه من حالة الذل والانكسار.

فإن الطريق إلى الله من «خلال النفس» وليس من «خارج النفس». وداخل النفس الإنسانية طرق كثيرة للعودة إلى الله، ومن

أرحب هذه الطرق وأوسعها وأسرعها طريق «الذُّل والانكسار» بين يدي الله تعالى. وأقرب الدعوات إلى الاستجابة دعوة الذليل المنكسر بين يدي الله.

أمّا من يريد العودة إلى الله من طريق الإعتداد بالنفس والشموخ بين يدي الله فقد يصل إلى أيّ شيء آخر، إلاّ أنه لن يصل إلى الله تعالى.

فإن أبواب رحمة الله مفتوحة على الناس، وهي تفيض عليهم فيضاً من غير توقف ولا حساب، وليس فيها شحّ ولا بخل، ولكن القلوب تنغلق على رحمة الله وفضله، فإذا انغلقت القلوب فلا تنفعها هذه الرحمة النازلة التي تصب من عند الله على عباده صبًّا.

فإذا فتح الإنسان قلبه على الله نزلت عليه هذه الرحمة من دون حساب.

وليس شيء يفتح مغاليق قلوب الناس على رحمة الله تعالى أفضل من حالة الذل والانكسار. فإن الإنسان إذا ذلّ بين يدي الله، وانكسر، لم يبقَ باب مُوصَد على الله في قلبه إلاّ انفتح.

وفي منهج الأدعية المأثورة، عن أهل البيت عليهم السلام، تأكيد على هذا النحو من التذلل والانكسار، بين يدي الله، في «رحلة العودة إلى الله».

ونماذج ذلك كثيرة، ونصوص الأدعية المأثورة عن أهل البيت غنية بهذه الحالة، وفي ما يلي نذكر نموذجاً من الدعاء الذي علّمه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام لأمّ داود، وهو وارد في أعمال شهر رجب. وإليك هذا المشهد الرائع من مشاهد الانكسار والتذلل بين يدي الله تعالى في رحلة العودة:

«وارحم ذلّي وفاقتي، وفقري، وانفرادي، ووحدتي، وخضوعي بين يديك واعتمادي عليك، وتضرعي إليك، أدعوك دعاء الخاضع الذليل، الخاشع، الخائف، المشفق، البائس، المهين، الحقير، الجائع، الفقير، العائذ، المستجير، المقر بذنبه، المستغفر منه، المستكين لربه، دعاء من أسلمته ثقته، ورفضته أحبته، وعظمت فجيعته، دعاء حرقٍ حزين، ضعيف، مهين، بائس، مستكين بك، مستجير».

وهذه المفردات الواردة، في هذه الفقرة من الدعاء، تجسِّد حالة انكسار العبد بين يدي الله. ذل، وفاقة، وفقر، وانفراد، ووحدة، وخضوع، واعتماد على الله وتضرُّع إليه، والذل، والخشوع، والخوف، والإشفاق، والهوان، والحقارة، والجوع، والاستعاذة، والإستجارة بالله، والإقرار والاعتراف بالذنب لله، والحزن، والفجيعة والبؤس، والإستكانة.

هذه المفردات بعض عناصر هذا المشهد الفريد الذي يجسد عبودية الإنسان وذلّه وهوانه بين يدي الله تعالى.

٧ ـ الطمع في رحمة الله

من شروط العودة إلى الله الطمع في رحمته.

والطمع غير الاستحقاق، فإن الطمع في ما لا يستحقه الإنسان. وإذا كان المذنب العائد إلى الله لا يستحق العفو والرحمة، بميزان الاستحقاق والعدل، فإنه يطمع في عفو الله ورحمته بميزان آخر هو فضله ورحمته، وليس استحقاق العبد.

وفي «رحلة العودة إلى الله» لا يستحق العبد العفو والرحمة من دون ريب، ولكنه يطمع؛ وهذا الطمع يقوم على أسس صحيحة وثابتة ومؤكدة من فضله ورحمته التي وسعت كل شيء. وجاء في دعاء الإفتتاح الذي يتلوه المؤمنون في شهر رمضان.

«أللّهم إن عفوك عن ذنبي، وتجاوزك عن خطيئتي، وصفحك عن ظلمي أطْمَعني في أن أسألك ما لا أستوجبه منك».

ما يتوقعه العبد، في هذا النص، من فضل الله تعالىٰ ورحمته، لا يقوم على أساس الإستحقاق والإستيجاب: «أطمعني في أن أسألك ما لا أستوجبه منك». ولكنه يعتمد على فضل الله ورحمته. «إن عفوك عن ذنبي وتجاوزك عن خطيئتي أطمعني...». وهو طمع له مسوغاته الصحيحة والمعقولة.

٨ ـ الخوف من الله

ومن شروط العودة «الخوف». وقد ذكرت آنفاً أن طريق العودة يمرُّ داخل النفس، وليس خارجها. والخوف من الله ممَّا جنى الإنسان على نفسه من مخالفته، من مراحل الطريق في داخل النفس، وما لم يخف العبد ربه على نفسه مما جنى عليها لن يعود إلى الله، فليست العودة إلى الله رغبة وأُمنية في نفس العبد، وإنما هي حقيقة قائمة في داخل النفس ومن عناصرها «الخوف».

وفي نصوص الأدعية الإسلامية يتجسد هذا الخوف في مشاهد كثيرة. ففي دعاء الإمام زين العابدين علي بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي علمه لأبي حمزة الثمالي: «أدعوك يا سيدي بلسان قد أخرسه ذنبه.

ربٍّ أناجيك بقلب قد أوبقه جرمه. أدعوك يا رب راهباً، راغباً، راجياً، طائعاً. إذا رأيت مولاي ذنوبي فزعت. وإذا رأيت كرمك طمعت. فإن عفوت فخير راحم، وإن عذّبت فغير ظالم».

وفي هذا النص امتزج «الخوف» بـ «الرجاء»، وهو مزيج يحبّه الله. وبهذا المزيج النَّفسي من «الخوف» و «الرجاء» يستقيم سلوك الإنسان ومشاعره تجاه الله تعالى في رحلة العودة إليه.

وليس معنى هذا المزيج أن يكون بعضه الخوف وبعضه الرجاء، بل كل الخوف وكل الرجاء.

وكيف يجتمع الخوف كلّه والرجاء كلّه والأمن كلّه في نفس الإنسان؟ وكيف يتكون هذا المزيج النفسي من «الخوف والرجاء» و «الفزع والأمن» في نفس الإنسان؟

الجواب في النص السابق نفسه: «إذا رأيت مولاي ذنوبي فزعت، وإذا رأيت كرمك طمعت».

إذا نظر الإنسان إلى ذنوبه غلبه الفزع والخوف وعلم أنه يستحق العقوبة. وإذا نظر إلى كرم الله تعالى طمع وأمن.

وكل من «الخوف والفزع» و «الرجاء والأمن» له أسبابه الحقيقة في نفس الإنسان. والعبد المؤمن في رحلة العودة إلى الله تعالى يشعر بهذا وذاك جميعاً.

٩ ـ العزم على العودة

ومن ضرورات هذه الرحلة العزم والإصرار على العودة، فهي رحلة شاقة، وذات شوكة، يتجاوز فيها الإنسان نفسه أولاً، وهذا أشق ما في هذه الرحلة، ويثبت فيها ثانياً بفضل الله ورحمته من دون

استحقاق واستيجاب، فإن لم يثبت، ولم يعزم، ولم يُصرّ على نيل مرضاة الله تعالى لا ينال ما يريد. ومرة أخرى أقول: ليس في رحمة الله تعالىٰ وفضله شح وبخل، وإنما لا بد من أن يوطن الإنسان نفسه لنزول رحمة الله واستقبال عفوه وفضله الذي يفيض على العباد فيضاً.

ومن شروط هذا التوطين والإعداد النفسي العزم والإصرار على العودة إلى الله. كما يتبيَّن في النصَّين الآتيين:

النص الأول: وفي النص التالي، من دعاء أبي حمزة الثمالي، نلتقي هذا المشهد العجيب من مشاهد العزم والإصرار على العودة:

«فوعزَّتك يا سيدي لو نهرتني ما برحت من بابك، ولا كففت عن تملقك، لما انتهى إليّ من المعرفة بجودك وكرمك. وأنت الفاعل لما تشاء، تعذب من تشاء بما تشاء، وترحم من تشاء بما تشاء، كيف تشاء».

وهذا النص يتضمن أمرين: العزم والمعرفة، ولا يتم العزم من دون المعرفة. ولا بد من أن تستتبع المعرفة العزم فهما متلازمان.

أما العزم: «فوعزتك يا سيدي لو نهرتني ما برحت من بابك، ولا كففت عن تملقك». وهو عزم، وأي عزم: لو نهرتني عن بابك ما كففت عن تملّقك.

أما المعرفة: «لما انتهى إليّ من المعرفة بجودك وكرمك، وأنت الفاعل لما تشاء، تعذب من تشاء بما تشاء كيف تشاء، وترحم من تشاء بما تشاء وكيف تشاء».

وهذه المعرفة بأمرين، لا سبيل إلى التشكيك فيهما:

الإيمان بجوده وكرمه تعالى: «لما انتهى إليّ من المعرفة بجودك وكرمك».

والإيمان بسلطانه المطلق الذي لا يحده شيء ولا يعجزه شيء: «وأنت الفاعل لما تشاء... الخ».

فإذا آمن الإنسان، بهذا أو ذاك، آمن بجود الله وكرمه، وآمن بسلطانه المطلق... فلا يكاد يتردد في العودة إلى الله تعالى، واللجوء إلى كرمه، ولا يكاد يداخل عزمه ويقينه خلل أوشكّ. وهل يبخل الله عليه تعالى برحمته وهو الجواد الكريم. أم يقصر عن ذلك سلطانه تعالى وقوّته، وهو الفاعل لما يشاء.

النص الثاني: وفي دعاء أبي حمزة، رحمه الله، نلتقي بالنص التالي، وهو مشابه للنص الأول:

١ ـ «فوعزَّتِكَ لو انتهرتَني ما برحتُ من بابكَ، ولا كففتُ عن تَملُّقِكَ، لِما أُلْهِمَ قلبي من المعرفة بكرمكَ وسعة رحمتِكَ.

٢ ـ إلى مَنْ يذهبُ العبدُ إلاّ إلى مولاهُ وإلىٰ من يلتجئُ المخلوقُ إلاّ إلى خالقِهِ.

٣ ـ إلٓهي لو قَرَنْتَنِي بالأصفادِ، وَمَنَعتَنِي سبيلك من بين الأشهادِ، وَدَلَلْتَ على فَضائِحي عُيُونَ العباد، وأمرتَ بي إلى النَّارِ، وَحُلتَ بيني وبينَ الأبرارِ ما قطعتُ رجائِي منكَ، وما صرفتُ تأمِيلِي للعفوِ عنكَ، ولا خرجَ حُبُّكَ مِنْ قَلبِي».

وهذه الفقرات الثلاث المتعاقبة في هذا الدعاء الشريف من روائع أدعية الإمام علي بن الحسين عليه السلام، وهي تتضمن العزم والإصرار أولاً، والإنقطاع إلى الله ثانياً، والرجاء والحب ثالثاً.

أما العزم: «فوعزتك لو انتهرتني ما برحت من بابك. . .» أما الانقطاع إلى الله: «إلى من يذهب العبد إلاّ إلى مولاه. . .» أما الرجاء والحب: «لو قرنتني بالأصفاد ومنعتني سبيلك من بين الأشهاد. . . ماقطعت رجائي منك، ولا خرج حبك من قلبي. . .».

١٠ ـ الحزن والبكاء

وبقدر ما يكون الإنسان، في رحلة العودة إلى الله، خائفاً مما يستقبله من العذاب والعقاب يكون حزيناً على ما فرط في ما تقدَّم من عمره، يحزن على ما سلف منه، ويخاف على مستقبله. ولا ينفك الحزن عن الخوف، وهو يبكي على هذا أو ذاك. تأملوا في هذه الفقرات من دعاء الأسحار للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

«وأعنّي على البكاء على نفسي. فقد أفنيت بالتسويف والآمال عمري. وقد نزلت منزلة الآيسين من خيري. فمن يكون أسوأ حالاً مني، إنْ أنا نقلت على مثل حالي إلي قبر لم أمهده لرقدي، ولم أفرشه بالعمل الصالح لضجعتي؟ ومالي لا أبكي ولا أدري إلى ما يكون مصيري، وأرى نفسي تخادعني، وأيامي تخاتلني. وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت. فمالي لا أبكي؟ أبكي لخروج نفسي. أبكي لضيق لحدي. أبكي لسؤال منكر ونكير إياي، أبكي لخروجي من قبري عرياناً، ذليلاً، حاملاً ثقلي على ظهري أنظر مرة عن يميني، وأخرى عن شمالي إذ الخلائق في شأن غير شأني، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يعنيه. وجوه يومئذ سافرة، ضاحكة مستبشرة، ووجوه يومئذ عليها غبرة، ترهقها قترة وذلة».

وفي هذا النص نقاط تحتاج إلى وقفات قصيرة:

يقول الإمام عليه السلام: «وأعني على البكاء على نفسي».

إن مواصلة الذنب والمعصية تقسّي القلب، فإذا قسا القلب وتحجّر انغلق على رحمة الله تعالى.

والحزن والبكاء، بعكس ذلك، يرققان القلب. وإذا رق القلب انفتح على رحمة الله.

وفي رحلة التوبة يجب على الإنسان أن يتخلص قبل كل شيء من قسوة القلب، ويرقق قلبه بالحزن والبكاء: «فقد أفنيت بالتسويف والآمال عمري».

وأخطر شيء على الإنسان «طول الأمل» فإنه يمدّ أمام الإنسان فسحة العمر، ويشغله بالآمال ويغيّب عنه الموت ويبعده عن عينه، وكل ذلك يتم في دائرة الوهم والأماني والآمال.

فإذا استقر هذا الوهم في نفس الإنسان بدأ يسوّف في كل ما يتعلق بالآخرة ويعجل في كل ما يتعلق بالدنيا، فيفني حياته بالتسويف والآمال... وهكذا تخادعنا أنفسنا، وتخاتلنا أيامنا: «وأرى نفسي تخادعني وأيامي تخاتلني».

إن نفس الإنسان تخدع صاحبها بهذا الوهم الكاذب، فتقرِّب له البعيد، وتبعّد له القريب، فتسلب صاحبها الرؤية الصحيحة.

وأيامه تخاتله وتنقص من عمره، من دون أن يشعر بهذا النقص، فتوهم نفسه بالبقاء والدوام وتسلبه أيامه أجزاء من عمره حتّىٰ تأتي عليه غيلة وخفية، من دون أن يشعر بذلك. ويقع الإنسان فريسة لهذا الوهم من جانب والمخاتلة والاغتيال من جانب آخر.

ومن العجيب أنه، مع ذلك، يشعر بأجنحة الموت تخفق عند رأسه، كما يشعر الصيد الذي يلاحقه الصقر، ويخفق على رأسه بأجنحة تشعره بدنو أجله، ومع ذلك لا يريد أن يفارق هذا الوهم: «وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت».

١١ ـ الاسترحام

«وليس في رحمة الله تعالى شح وبخل». وإنما هي تفيض من لدن الله تعالى فيضاً متصلاً لا ينقطع، غير أن لرحمة الله تعالى منازل، فإذا وضع الإنسان نفسه فيها أصابته الرحمة، وإذا ابتعد الإنسان عنها لم تصبه الرحمة.

فالشأن كله ليس في نزول الرحمة، فإنّها نازلة من عند الله بصورة متصلة لا تنقطع من غير شح ولا بخل، وإنما الشأن في منازلها. فإذا عرف الإنسان هذه المنازل، ووضع نفسه فيها لا تخطئه الرَّحمة.

ومن أهم منازل رحمة الله أن يعي العبد فقره إلى الله، وبؤسه وشقاءه وعجزه وضعفه وغربته وكربه وخشيته.

فإذا وعى الإنسان هذه الحقيقة وعياً بيّناً وضع نفسه في منازل رحمة الله. وبقدر ما يزداد وعيه ببؤسه وشقائه وفقره وضعفه وكربته يزيد حظه من رحمة الله تعالى.

وكل الناس إلى الله تعالى فقراء، والله تعالى وحده هو الغني الحميد، إلاّ أنّهم يختلفون، بعضهم عن بعض، في مراتب وعيهم لفقرهم وبؤسهم وحاجتهم.

فمن كان وعيه لفقره وحاجته إلى الله أبلغ كان حظه من رحمة الله تعالى أعظم.

وهذه معادلة ثابتة في علاقة الإنسان بالله تعالى، وهي من أسرار هذا الدين، ومن يدرك هذه الحقيقة يدرك خيراً كثيراً في علاقته بالله تعالىٰ. ولذلك نجد أن نصوص الأدعية المأثورة عن أهل البيت تؤكد لدى العبد حالة الإحساس والوعي بفقره وحاجته إلى الله في الدنيا، وبؤسه وكربته ووحشته ووحدته ساعة الموت وبعد الموت.

ووعي هذه الحاجة والبؤس من أعظم منازل رحمة الله تعالى.

تأملوا في هذه الفقرة من دعاء الأسحار للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

«وإن همِّي في هذه الدنيا غربتي، وعند الموت كربتي، وفي القبر وحدتي، وفي اللحد وحشتي، وإذا نشرت للحساب بين يديك ذل موقفي. واغفر لي ما خفي على الآدميين من عملي، وأدم ما به سترتني، وارحمني صريعاً على الفراش تقلبني أيدي أحبتي، وتفضل عليّ ممدوداً على المغتسل يقلبني صالح جيرتي، وتحنَّن عليّ محمولاً قد تناول الأقرباء أطراف جنازتي، وجُدْ عليّ منقولاً قد نزلت بك وحيداً في حفرتي، وارحم في ذلك البيت الجديد غربتي».

وأي بؤس للإنسان أكثر من بؤسه إذا حضره الموت، وأودع في قبره، ونشر للحساب بين يدي الله تعالى، وليس له عمل صالح يقدمه إليه. وأيّ بؤس للإنسان أكثر من أن ينزل به الموت، وهو لم يعدّ نفسه لهذه الرحلة الرهيبة، ولم يتزود بالتقوى والعمل الصالح.

وأي بؤس للإنسان أبلغ من بؤسه إذا صرعه الموت، وهو في هذه الحالة من قلة الزاد وتراكم السيئات. ثم حمل أصدقاؤه وأقرباؤه جنازته ليودعوه وحده في حفرته، لا يرافقه فيها أحد إلاّ عمله الذي قدّمه بين يديه.

١٢ ـ الفرار إلى الله والإستعاذة به

وفي هذه الرحلة لا بدَّ من أن يفرّ الإنسان إلى الله ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنّي لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات/ ٥٠]. ولا بُدَّ من أن تكون العودة فراراً إلى الله، وحالة الفرار هي حالة الرعب والخوف وحالة اللجوء.

الرعب والخوف من ركام الذنوب والمعاصي ومن الأهواء والفتن، واللجوء إلى الله من سخطه وغضبه إلى رحمته وفضله.

ففي أدعية أيام شهر رمضان:

«أللّهم إليك فررنا من ذنوبنا، فآونا تائبين وتب علينا مستغفرين، واغفر لنا متعوّذين، وأعذنا مستجيرين، وأجرنا مستسلمين ولا تخذلنا راجين، وشفّعنا سائلين».

والفرار استعاذة: وإذا استعاذ العبد بالله تعالى أعاذه لا محالة، ولا يمكن أن يفر العبد إلى الله، عائذاً إليه، عائذاً به، ثم لا يعيذه الله تعالى من ذنوبه وآثامه، ومن الأهواء والفتن، ومن غضبه وسخطه تعالى، إلاّ أن يكون الإنسان كاذباً في ذلك.

والاستعاذة ليست من مقولات اللفظ وإنما هي حالة حقيقية قائمة في نفس الإنسان، وهي مزيج من الرعب والخوف، ومن طلب اللجوء والحماية.

فإذا استشعر الإنسان، في رحلة العودة إلى الله، هذه الحالة من الرعب والخوف وطلب اللجوء من الله أعاذه الله تعالى لا محالة، فإنَّ الله قوي عزيز، وإذا حمى عبداً أعاذه، فلا ينال منه الشيطان ولا تنال منه الأهواء والفتن، وكان في حصن منيع من كل مكر وسوء.

١٣ ـ الاستغفار

وإذا كان معنى الفرار إلى الله والإستعاذة به الحماية من سلطان الفتن والأهواء، ومن غضبه في المستقبل، فإن الاستغفار يعني تجاوز ما سلف من التفريط في الماضي والعفو عنه.

ولا بد للإنسان، في رحلة العودة إلى الله، من هذا وذاك معاً. لا بدَّ من أن يعفو الله عمّا سلف من ذنوبه وآثامه في الماضي ويعيذه ويعصمه من سلطان الأهواء والفتن في المستقبل.

ومن الذنوب ما يهتك الستر والعصمة عن الإنسان. ومن الذنوب ما ينزل النقم والبلاء، ومن الذنوب ما يغيِّر النعم ويسلبها، ومن الذنوب ما يحبس الدعاء.

فلا بدَّ للإنسان، في رحلة العودة إلى الله، من أن يستغفر الله تعالى في المراحل الأولى من هذه الرحلة من جميع ذنوبه وآثامه لينفتح له طريق العودة إلى الله تعالى.

وجاء في دعاء كميل: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم. اللهم اغفر لي الذنوب التي تُنزل النقم. اللهم اغفر لي الذنوب التي تغيِّر النعم. اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء. اللهم اغفر لي الذنوب التي تُنزل البلاء. اللهم اغفر لي كل ذنب أذنبته، وكل خطيئة أخطأتُها».

١٤ ـ الاضطرار إلى الله

ولا يتم للإنسان الاستغفار من ذنوبه إلاّ إذا أحس بالاضطرار إلى الله، ولم يجد لذنوبه غافراً سواه.

فإذا عرف ذنوبه وأقرَّ بها، وشعر بالإثم والجريمة واعترف بهما، وعرف أن ليس لذنوبه غافر إلاّ الله، ولا لكسره جابر إلاّ الله، وأنه مضطر إلى رحمة الله تعالى وعفوه اضطراراً، صح عزمه ـ عندئذ ـ في الإستغفار. في المناجاة الأولى من المناجيات الخمس عشرة: «فوعزّتك ما أجد لذنوبي سواك غافراً، ولا أرى لكسري غيرك جابراً، فإن طردتني من بابك فبمن ألوذ؟ وإن رددتني عن جنابك فبمن أعوذ؟».

١٥ ـ الندم

ولا بد في هذه الرحلة من الندم، ولا يصح عزم الإنسان، ولا تصدق نيّته في العودة إلى الله إلاّ إذا أحسّ بالندم على ما فرَّط في أمر الله.

جاء في المناجاة الأولى: «إلهي، هل يرجع العبد الآبق إلاّ إلى مولاه؟ وهل يجيره أحد من سخطه سواه؟ إلهي، إن كان الندم على الذنب توبة فإني وعزتك من النادمين، وإن كان الاستغفار من الخطيئة حطّة فإني لك من المستغفرين».

(٢)
سبحانك

صفات الجمال وصفات الجلال

ولله تعالى نحوان من الصفات هما: صفات الجمال وصفات الجلال:

وصفات الجمال هي «صفات الله الحسنى الثبوتية: الإيجابية» كالعلم والسلطان والحلم والعفو والجود والحكمة، وصفات الجلال هي صفات الله الحسنى التي تنفي عن الله النقص والعجز والجهل والشح والقصور والفقر والحاجة والضعف.. ولله تعالى الجمال المطلق والجلال المطلق. والإطلاق هنا في كل من الجلال والجمال بمعناه الحقيقي. فهو، سبحانه وتعالى، جميل ولا ينقصه من الجمال شيء، واجد لكل كمال جمال. وهو سبحانه جليل، ولا ينقصه من الجلال شيء، وليس في ذاته نقص أو قصور، أو ضعف أو عجز أو فقر وجهل. وصفات الجلال هي نفي القصور والعجز والجهل والفقر... عن ذات الله تعالى.

التسبيح لله

التسبيح هو تنزيه اللهتعالى عن كل نقص وعجز وجهل.

وهذا هو التسبيح، تنزيه الله تعالى عن كل ما يتصوره الإنسان من عجز وفقر. فإن الذات الإلهية واجبة في مقابل «الإمكان»، وغنية في مقابل «الفقر»، ومطلقة في مقابل «المحدود»... بالضرورة.

وكل صفة تنافي هذا الوجوب والإطلاق والغنى منفيّة عن الذات الإلهية بالضرورة. فهو سبحانه منزَّه عن كل نقص وقصور وعجز وجهل وفقر وظلم بالضرورة.

والتسبيح علىٰ نحوين، أولهما تسبيح وتنزيه في العقيدة، بمعنى الإعتقاد بتنزيه الله تعالىٰ عن القصور والعجز، وثانيهما تسبيح في مجال السلوك والعلاقة بالله. بمعنى التعامل معه من منطلق الإيمان بأن كل ما يفعله الإنسان من خير هو من الله، وكل ما يفعله من شر هو من نفسه. وكل جميل في علاقة الإنسان بالله هو من الله، وكل قبيح وسوء في هذه العلاقة هو من الإنسان.

في دعاء الأسحار للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام : «أنت المحسن ونحن المسيئون، فتجاوز يا رب عن قبيح ما عندنا بجميل ما عندك». وقبيح ما عندنا هو السيئات. وجميل ما عند الله هو العفو والمغفرة. وجميل ما عند الله يذهب بقبيح ما عندنا.

وهذا نحو من «التسبيح» في «العلاقة بالله» في مقابل التسبيح في «العقيدة».

الاعتراض المكتوم في العلاقة بالله

ولدىٰ كثير من الناس نحو من الاعتراض المكتوم على الله. وهذا الاعتراض تارة في ما يصيب الإنسان من الابتلاء بالنقص في الأنفس والأموال. وتارة في ما يرتكب الناس من الذنوب والمعاصي، فيعتقد الإنسان أن ما يصدر عنه من الذنوب والمعاصي لا يكون إلاّ بقضاء من الله وقدره.

وما كان بقضاء وقدر لا يكون تحت اختيار الإنسان وأمره، ولا يكون الإنسان مسؤولاً عنه، فإن الإنسان لا يكون مسؤولاً إلاّ عما

يكون تحت اختياره وأمره، وما كان بقضاء من الله وقدره يدخل في دائرة الحتميات ويخرج عن دائرة اختيار الإنسان .

وهاتان قضيتان تؤديان مجتمعتين إلىٰ سلب مسؤولية الإنسان عما يصدر عنه من الأفعال .

القضية الأولىٰ: إن كل شيء، في هذا الكون، يوجد بقضاء وقدر، وأفعال الإنسان لا تشذ عن هذه القاعدة الفلسفية العامة .

والقضية الثانية : إن كل ما يتم بقضاء وقدر هو بالضرورة يدخل في دائرة الحتميات، ولا يكون تحت اختيار الإنسان وإرادته وسلطانه .

والنتيجة هي أن الإنسان لا يتحمل أيَّة مسؤولية تجاه أفعاله ولا تصحّ مؤاخذته وعقوبته. وإذا أمعنا النظر، نجد أن القضية الأولىٰ منهما صحيحة والقضية الثانية باطلة. وبذلك فلا ننتهي إلى النتيجة المذكورة. وإليك تفصيل كل من هاتين القضيتين .

القضية الأولى

القضية الأولىٰ ومفادها أن ما يصدر عن الإنسان لا بد من أن يتحقق بقضاء وقدر، وهذا أمر صحيح وقطعي من دون ريب .

فإذا أحرق الإنسان مدينة أو دمرها في الحرب تم ذلك بقضاء وقدر. وإذا أنشأ الإنسان مدينة أو عمَّرها فإن ذلك لا يكون إلاّ بقضاء وقدر. وإذا قتل إنساناً قتله بقضاء وقدر وإذا أحياه، أحياه بقضاء وقدر. فقانون العلِّيَّة يحكم هذا الكون، ولا يخرج عن حكم هذا القانون شيء في هذا الكون، فلا تتم الحروب ولا يتم البناء ولا يتم القتل ولا يتم الإحياء إلاّ بقانون العلِّيَّة .

وقانون العِلِّيّة يضمن دائماً حتمية المعلول عند وجود عِلّة، وامتناع وجود المعلول من دون وجود علّته.

فالخراب، والعمران، والقتل، والإحياء، لا يمكن أن يتم أي منها من دون وجود علّته. ويستحيل أن لا يتحقق مع وجود علّته. فكل من هذه الأمور يجب بوجود علّته ولا يتحقق من دون وجود علّته.

وهذا هو القضاء، وهو بمعنىٰ «حتمية الوجود»، وكما تقتضي العلّة «حتمية» المعلول تقتضي كذلك «تقدير» المعلول.

فإن إشعال عود الثقاب يقتضي حتمية الحرارة، كما يقتضيها الإنفجار الذَرّي، إلاّ أن الإنفجار الذَرّي يقتضي الحرارة بـ «قدر معيَّن» وعود الثقاب يقتضي الحرارة بـ «مقدار آخر».

واختلاف المقدارين مرهون باختلاف حجم العِلّتين بموجب قانون المسانخة بين العِلّة والمعلول.

فإن العِلّة كما تقتضي وجود المعلول بصورة حتمية، كذلك مسانخة المعلول لها، وأن يكون المعلول من سنخها من حيث الكم والكيف. فلا يجوز أن تكون ثمرة شجرة التُفّاح حكم الحنطة، ولا يجوز أن تكون التفاحة ثمرة لسنابل القمح. ولا يجوز أن يكون الانجماد نتيجة لإرتفاع درجة الحرارة ولا يجوز أن يكون الانصهار نتيجة لانخفاض درجة الحرارة... بموجب قانون السنخية بين العِلّة والمعلول ووفق القانون نفسه تختلف درجة الانصهار من معدن إلىٰ معدن باختلاف درجات الحرارة، فلا يجوز أن ينصهر «الحديد»

بالدرجة الحرارية نفسها التي يذوب فيها «الذهب» مثلاً، ولا يجوز أن تكون درجة الحرارة الحاصلة من الانفجار الذري دون الدرجة الحاصلة من اشتعال عود الثقاب. كل ذلك بموجب قانون السنخية بين العِلّة والمعلول.

إذن يتحتم وجود المعلول عند وجود علته، وهذا هو «القضاء». ولا بد من أن يكون المعلول من سنخ علته، في الكم والكيف وهذا هو «القدر».

إن «حتمية» الحرارة بإشعال عود الثقاب «قضاء» و «درجة الحرارة» التي يبعثها عود الثقاب المشتعل «قدر».

والقضاء والقدر قانون عام في هذا الكون لا يشذ منه شيء، وكل شيء يجري في هذا الكون يجري بقضاء وقدر.

ولا يشذ عن ذلك ما يصدر عن الإنسان من عمل صالح أو قبيح فإن أفعال الإنسان، كأي شيء في هذا الكون، تتحقق وتجب بوجود علتها، ولا تتحقق من دون علتها. إذا وجدت العِلّة وجد المعلول بالضرورة من سنخ العلة كماً وكيفاً. وهذه هي القضية الأولىٰ التي قلنا عنها إنها قطعية لا شك فيها.

القضية الثانية

أما القضية الثانية فأمرها مختلف عن القضية الأولىٰ اختلافاً كبيراً، فإن إرادة الإنسان واختياره جزء من العلة الثانية التي تستوجب وجود المعلول، فلا يتحقق المعلول من دون إرادة الإنسان، ويجب بوجود الإرادة، إلاّ أن هذه الحتمية في جانب المعلول لا تنافي أن

يكون هذا الفعل واقعاً تحت اختيار الإنسان ومسؤوليته، لموضع الإرادة والاختيار في جانب العلة.

صحيح أن الفعل، بعد أن يختاره الإنسان ويقدم عليه يجب ويعم إلاّ أن إرادة الإنسان واختياره لما كانت جزءاً من العلة الثانية التي تستوجب المعلول، وكان أمر الإرادة والإختيار بيد الإنسان، فلا محالة يكون الإنسان مختاراً في إيجاد الفعل وعدمه قبل العمل، ويكون الفعل تحت سلطان إرادته، ويكون الإنسان في النتيجة مسؤولاً عن فعله.

الإرادة جزء من العلة. وأمر الإرادة بيد الإنسان، وإذا كانت العلة تحت سلطان الإنسان كان المعلول كذلك بالضرورة.

وقد ورد في «دعاء كميل» في توجيه هذا الاعتراض الذي يساور النفس البشرية:

«إلٰهي ومولاي، أجريت عليّ حكماً اتبعت فيه هوى نفسي، ولم أحترس فيه من تزيين عدوي، فغرّني بما أهوىٰ، وأسعده علىٰ ذلك القضاء فتجاوزت بما جرىٰ عليَّ مِن ذلك بعض حدودك، وخالفت بعض أوامرك. فلك الحجةُ عليَّ في جميع ذلك، ولا حجة لي في ما جرىٰ عليّ فيه قضاؤك، والزمني حكمك وبلاؤك».

وهذا الذي جرىٰ فيه القضاء على الإنسان من السيئات والذنوب، وألزمه الله تعالىٰ بحكمه وبلائه جرىٰ بإرادة الإنسان واختياره ولا حجة للإنسان على الله في ما جرىٰ فيه القضاء الإلهي.

فلم يَرَ الإنسان ولا يرىٰ من الله غير الجميل «فلك الحجةُ عليّ في جميع ذلك».

ولن يكون، ولا يكون، للعبد حجَّة علىٰ الله في ما جرىٰ عليه من قضاء الله وحكمه وبلائه: «ولا حجة لي فيما جرىٰ عليَّ فيه قضاؤك».

يقول تعالىٰ: ﴿فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البالِغةُ﴾ [الأنعام/ ١٤٩] ويقول تعالىٰ ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ للنَّاسِ على اللهِ حُجَّةٌ﴾ [النساء/ ١٦٥].

اتجاه التخفُّف من المسؤولية يتضمَّن اعتراضاً مكتوماً..

ولكن الإنسان يحاول أن يتخفف من المسؤولية في ما يرتكب من الذنوب والمعاصي، ويجعل من ابتلاء الله تعالىٰ لعباده سبباً للتنصل من المسؤولية.

وهذا الاتجاه، من الرأي، يتضمن اعتراضاً مكتوماً على الله؛ حيث يرىٰ الإنسان أن ابتلاءه بالذنوب والمعاصي أمر من ناحية الله تعالىٰ.

وهذا الاعتراض المكتوم موجود بشكل أو بآخر عند كثير من الناس، ويتفاعل هذا الاتراض في نفس الإنسان حتىٰ يتشبع ذهنه بالاعتراض على الله تعالى، من حيث يريد أو لا يريد.

من هذا المدخل يدخل الإنسان في علاقة سلبية بالله تعالى، ويدخل الشيطان في علاقة العبد بالله تعالىٰ.

وأخطر ما يكون أمر الشيطان وتدخّله في حياة الإنسان أن يدخل في أفق علاقته بالله تعالىٰ فيفسد هذه العلاقة، ويسمها بالسلبية وعدم الرضا والاعتراض، ويجعل أساسها الاعتراض والشك والريب.

إن الشيطان قد يدخل في علاقة الإنسان بنفسه فيفسدها، وقد يدخل في علاقة الإنسان بإخوانه وأهله فيفسدها، وقد يدخل في علاقة الإنسان بنعم الله تعالىٰ فيفسدها، وقد يدخل قلب الإنسان فيفسده وقد يدخل عقل الإنسان فيفسده، إلاّ أن أخطر ما يكون فيه أمر الشيطان وتدخلّه في علاقة الإنسان بالله، فإن قيمة الإنسان تتمثل في علاقته بالله تعالىٰ، فإذا أفسد الشيطان عليه هذه العلاقة لا ينفعه بعد ذلك شيء.

و «الاعتراض» علىٰ الله أفضل المداخل التي يفضلها الشيطان للنفوذ إلى علاقة الإنسان بربه.

العلاقة بالله في منهج التربية الإسلامية

وفي منهج التربية الإسلامية يتجرَّد «العبد» في «علاقته» بـ «الله» من كل إحساس وشعور بالاعتراض على الله، من الإعتراض المكتوم والسافر.

وتقوم العلاقة على أساس الاعتراف لله تعالىٰ بالذنب والظلم والتقصير، واتهام النفس، والإيمان بأن لله الحجة البالغة في كل سوء أو ظلم أو ذنب صدر من العبد ﴿قل فللّه الحجَّةُ البالغةُ﴾ [الأنعام/ ١٤٩]، ﴿لِئَلاَّ يكونَ للناس على الله حجَّةٌ﴾ [النساء/ ١٦٥].

إن العلاقة المتبادلة بين الله تعالىٰ وعبده نازلة وصاعدة: نازلة من الله علىٰ عبده، وصاعدة من العبد إلى الله.

فكلُّ ما يكون في حياة الإنسان، من خير ورحمة وهدى ونور، ينزل من لدن الله تعالىٰ على عبده في هذه العلاقة، وكل ما يكون في

حياة الإنسان، من سوء وشر وظلم وإثم، يصعد من العبد إلى الله، ورحم الله العبد العارف الذي كان يقول: «أللهم إني أستغفرك من كل ما يصعد مني إليك واحمدك على كل ما ينزل منك إليّ».

تعميق الشعور بالإثم والظلم في منهج التربية الإسلامية

و «الإعتراض» على الله و «التنصل» من مسؤولية الإنسان عما يصدر عنه من الظلم والإثم... يخدع الإنسان عن نفسه، ويحجبه عن ذنوبه وسيئاته، ويسلب عنه الشعور بالظلم والإثم، وبالتالي يسلب عنه حالة الاعتراف بالذنب بين يدي الله وحالة الإستغفار فإن الاعتراض على الله حجاب يحجب الإنسان عن «الاعتراف» و «الاستغفار»، وبالتالي يحجبه عن رحمة الله تعالىٰ ومغفرته.

ومن بؤس الإنسان وشقائه أن يُحرِمَ نفسه من أن يتعرض لرحمة الله تعالى ومغفرته من باب من أوسع أبواب الرحمة والمغفرة الإلهية.

ويعكس ذلك الشعور بالظلم لذنب يعدّ العبد للإستغفار، ويضع الإنسان في واحد من أفضل مواضع رحمة الله.

فإن الإحساس بالذنب أساس الاعتراف بين يدي الله تعالى بالظلم والتقصير، والاعتراف بين يدي الله بالظلم أساس الاستغفار، والاستغفار من منازل رحمة الله وأبواب مغفرته وفضله.

فلا بد للإنسان من أن يشعر بمسؤوليته عن الذنوب والمعاصي حتى يعترف لله ـ صادقاً ـ بالظلم، ويقف بين يدي الله تعالىٰ بـ «ذل المعصية»، ولا بد من أن يعترف لله بذنوبه ومعاصيه وظلمه وإثمه،

ويرفع إلى الله ذلّه وصغاره حتىٰ يتمكن من أن يستغفر الله تعالى صادقاً.

والاستغفار، كما قلنا، من أبواب رحمة الله، ومنازل مغفرته وفضله، وما لم يستغفر الإنسان ربه، صادقاً، فلن يفتح له هذا الباب.

فليس الإستغفار من «مقولة الكلام»، وإن كان الكلام يعبر عنه وإنما هو من مقولة «الأحوال النفسية».

وما لم تتحقق حالة الاستغفار لدىٰ الإنسان فلن يفتح عليه هذا الباب، ولن تنزل عليه الرحمة والمغفرة الإلهية التي تنزل على الذين يضعون أنفسهم في منازل رحمة الله.

فهذه مجموعة معادلات قطعية لا يمكن الفصل بين بعضها وبعض.

المراحل الأربع في آية ذي النون

والتسبيح، في كلام العبد الصالح ذي النون، في بطن الحوت، يتضمن معنى نفي الاعتراض على الله. فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ في بطن الحوت ينفي عن الله تعالى كل ظلم، وينزّهه.

وهذا التسبيح يتضمن نفي الإعتراض عن الله وتنزيهه تعالى من أن يلحقه اعتراض، وهذه هي الفقرة الأولى من كلمة العبد الصالح ذي النون «سبحانك»، وبعدها تأتي مباشرة فقرة (الإعتراف) بالذنب والظلم: ﴿إنِّي كنتُ من الظالمين﴾. ويأتي الاعتراف والإقرار بالظلم بين يدي الله تعالى نتيجة نفي الاعتراض على الله، وهذه هي

الفقرة الثانية من كلام العبد الصالح ذي النون في بطن الحوت ﴿**إني كنت من الظالمين**﴾.

والفقرة الثالثة، من الآية الكريمة، بعد الفقرتين السابقتين، هي: ﴿**فاستَجَبْنا له ونَجَّيْناهُ من الغَمِّ**﴾، وتأتي نتيجة للفقرتين السابقتين، فإن الاعتراف بالظلم في كلام العبد الصالح «استغفار»، والاستغفار من منازل رحمة الله تعالىٰ كما ذكرنا.

ولما وضع العبد الصالح ذو النون نفسه في موضع الاعتراف والاستغفار نزلت عليه الرحمة والمغفرة من لدن الله تعالىٰ مباشرة ﴿**فاستجبنا له ونجيناه من الغم**﴾. وهذه هي الفقرة الثالثة في الآية الكريمة والفقرة الرابعة هي فقرة «التعميم»، ﴿**وكذلكَ نُنْجي المؤمنين**﴾.

فإن الذي حدث لذي النون عَلَيْهِ السَّلَامُ في بطن الحوت سنَّة وقانون، وسنن الله تعالى لا تخص عبداً دون عبد، وكل من تعرَّض لما تعرَّض له ذو النون عَلَيْهِ السَّلَامُ من الاعتراف بالظلم والاستغفار ينزل عليه من الرحمة والمغفرة ما نزل على هذا العبد الصالح في بطن الحوت.

الاعتراض والاعتراف

«الاعتراض» و «الاعتراف» مقولتان متقابلتان، ولهما أثران متعاكسان على الإنسان، فالاعتراض يحجب الإنسان عن رحمة الله، والاعتراف يضع الإنسان في منازل هذه الرَّحمة.

والعلاقة بين «الاعتراض» والحجاب عن الرحمة، وكذلك العلاقة بين «الاعتراف» والنزول في منازل الرحمة... علاقة

تكوينية بموجب سنن الله تعالى، فإن رحمة الله تنزل على موضع «الفقر» و «الحاجة»، والاعتراف إعلان للفقر والحاجة.

وإذا وضع الإنسان نفسهُ في موضع الفقر إلى الله والحاجة إلى مغفرة الله تعالى استنزل رحمة الله عز وجل.

و «الاعتـراض» استكبـار وغـرور وتنصـل عـن المسـؤوليـة وعجب، ولا ينزل شيء من رحمة الله على مواضع الغرور والعجب والاستكبار، كما تنحدر مياه الأمطار إلى المواضع الواطئة من الأرض ولا تستقر على القمم المرتفعة الناتئة من الأرض، فإذا أراد الإنسان أن يستنزل رحمة الله كان عليه أن يضع نفسه في المواضع الواطئة من رحمة الله، لا موضع الاستكبار والغرور والعجب.

ورحمة الله وعفوه ومغفرته لا تنزل على الذنوب والمعاصي فإن الذنوب والمعاصي تحجب صاحبها عن رحمة الله، ولا تضعه في مواضع هبوطها، لأنها تنزل في حال الإحساس بالذنب، والإعتراف بالظلم «وليس على الذنب والظلم»، فقد يذنب الإنسان ويظلم نفسه، فيستخف بذنبه ويتنصل عن مسؤوليته، ويستهين به، فلا يزيده ذنبه إلاّ بُعداً عن رحمة الله تعالىٰ.

وقد يذنب فيسوؤه ذلك ويشعره بالحياء والخجل بين يدي الله، ويعمِّق في نفسه الإعتراف بالظلم، فيلوذ بالله ويستغفره، ويتضرع إليه فيستنزل رحمته، فتنزل رحمته ومغفرته وفضله، كما نزلت على العبد الصالح ذي النون عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي قال: ﴿إني كنت من الظالمين﴾.

(٣)
إنّي كنت من الظالمين

في هذا النصّ يعترف العبد الصالح يونس عليه السلام بالظلم ﴿إني كنت من الظالمين﴾، وليس في النص استغفار، والاعتراف بالذنب يستبطن الاستغفار، عن الإمام علي عليه السلام: «الندم استغفار، والإقرار اعتذار»، وعن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: «المقر بالذنب تائب»[1].

و «الاعتراف» بحد ذاته من منازل رحمة الله. وهنا، في هذا النص، يضع العبد الصالح يونس عليه السلام نفسه في موضع رحمة الله؛ حيث يعترف بالظلم بين يديه، فيستنزل بذلك رحمته.

ولا بد لهذا الإجمال من تفصيل:

الأحوال

للإنسان مع الله تعالى علاقة ما وراء «الأعمال» و «الأقوال»، وهذه العلاقة هي علاقة «الأحوال»، وهي الحالات النفسيّة التي توجّه الإنسان إلى الأفعال والأحوال.

الأحوال منازل رحمة الله

والأحوال منازل رحمة الله، فإن رحمة الله تعالى تنزل على «أحوال» الإنسان من خشوع، واضطرار، وإقبال، وخوف، وحب، وشوق...

---

(١) مستدرك الوسائل، ٢/ ٣٤٥.

والعلاقة بين «الحال» و «رحمة الله تعالى» هي علاقة السببيّة والعِلّيّة[1].

فإذا رقَّ القلب نزلت رحمة الله على العبد، كما ينحدر الماء إلى الأرض الواطئة، وكما تجتذب التربة الهشّة الماء... كذلك القلب الذي يرق يجتذب رحمة الله ويستنزلها وفق القانون نفسه، إلاّ أن العلاقة بين الأرض الواطئة وانحدار الماء علاقة مادية محسوسة، والعلاقة بين رقة القلب ونزول رحمة الله علاقة غير مادية وغير محسوسة، ما وراء الفيزياء.

إلاّ أنَّ العلاقة بين رقة القلب ونزول رحمة الله تبقى هي من العلاقة السببيَّة.

قيمة العبادات في الأحوال

ومن دون أن ننتقص من قيمة الأفعال والأقوال في العبادات، في الجزاء والإجراء، نقول: إن الأحوال هي الأساس في تقييمها. وقيمة الفعل والقول في العبادات تُقدَّر بمقدار ما يحمل كل منهما من الحال. وكلما كان حظ الفعل والقول في العبادات من «الحال» أكثر كانت تلك العبادة أقرب إلى مرضاة الله، وأجزل ثواباً عنده.

فثواب الصلاة وقيمتها، عند الله، بقدر ما يستحضر المُصَلِّي ذُلّ الوقوف بين يدي الله، وبقدر ما يخشع في صلاته له، وكلما حط

---

(١) وليس معنى ذلك أن نفصل نزول رحمة الله تعالى عن إرادته ومشيئته عزَّ وجل، ولذلك بيان لا يسعه المقام.

العبد في الصلاة من الخشوع والذل بين يدي الله والذُكر أكثر كانت صلاته أقرب إلى الله وأبلغ في استنزال رحمته وأجزل ثواباً عنده.

وقيمة التوبة في العزم على العودة إلى الله، والكف عن معصيته الله، والإستحياء منه، والندم. وليست التوبة في حقيقتها إلاّ هذا العزم والاستحياء، والندم، وهي حالات يحبها الله تعالى لعبده، تستنزل رحمته، وقيمة التوبة عند الله تقدَّر بها.

روي عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «التوبةُ ندمٌ بالقلب، واستغفارٌ باللسانِ، وتركٌ بالجوارحِ، وإضمارٌ أن لا يعودَ» (غُرَرُ الحِكَمِ ودُرَر الكَلِم، للآمدي: ١/ ١١٠، الحكمة رقم ٢٠٩٤).

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معان: أولها: الندم على ما مضى. والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً. والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم. والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة ضيعتها فتؤدي حقها. والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السُّحْتِ فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم. والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية. فعند ذلك تقول.. استغفر الله»(١).

يُشْعر الدعاء، في حالتي الفقر والاضطرار إلى الله، الإنسان بفقره واضطراره إلى الله، كما أن الدعاء ينبع من الإحساس بهما، وهما ما يستنزل الرَّحمة.

---

(١) شرح نهج البلاغة، ٢٠ـ٥٦.

وآية سورة النمل ﴿أَمَّنْ يُجيبُ المُضْطَرَ إذا دَعَاهُ ويكْشِفُ السوء﴾ [النمل/ ٦٢] إشارة إلى ذلك، فإن حالة «الإضطرار» إلى الله هي التّي تستنزل «الإستجابة» من عنده، إذا وعى العبد ربه.

وقيمة الاستعاذة في اللجوء إلى الله، واللوذ به، ومن دونهما تفرغ الاستعاذة من كل محتواها، ولا يبقى منها إلاّ اللفظ.

وقيمة الذكر في التذكر (الذُّكر)، ولولا إنّ الذكر يذّكر الإنسان بالله لا تبقىٰ قيمة له.

وقيمة الزكاة في حالة «الإنفاق مما يحبّه الإنسان» يقول تعالىٰ ﴿لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران/ ٩٢].

وفي حالة إيثار الإنسان لغيره على نفسه مع وجود الحاجة والخصاصة، يقول تعالىٰ ﴿يُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ ولو كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر/ ٩].

وفي حالة «الإنفاق حُباً لله»، يقول تعالى ﴿ويُطعِمُونَ الطَّعامَ على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وأَسيراً﴾ [الإنسان/ ٨].

هذه حالات يحبها الله تعالى لعبده، وهي الّتي تستنزل رحمته، وفيها قيمة الزكاة والإنفاق.

وقيمة الصوم في «الكف» و «الجوع» والكف سبب والجوع نتيجة.

وقيمة التقوى، في الطاعة والتسليم والعبودية لله.

وقيمة العبادات على نحو العموم في ابتغاء وجه الله في الذكر.

وقيمة الابتلاءات الّتي يبتلي الله تعالى بها عباده في الصبر والتضرع، فإن ابتلاء الله يتطلب من الإنسان الصبر. والصبر حالة

يحبها الله تعالى لعباده يقول ـ تقدس أسماؤه ـ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشيءٍ مِنَ الخَوفِ والجُوعِ وَنَقْصٍ من الأموالِ والأنفُسِ والثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرينَ * الَّذِينَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصيبةٌ قَالوا إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ * أُولئِكَ عَلَيهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وأُولئِكَ هُمُ المُهتدونَ﴾ [البقرة/ ١٥٥ ـ ١٥٧].

وفي الإبتلاء يتضرع الإنسان إلى الله تعالى.

يقول: ﴿وَمَا أَرسَلْنا في قَريَةٍ من نَّبِيٍّ إلاّ أَخَذْنا أهلَها بِالْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ لَعلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف/ ٩٤].

والتضرع إلى الله حالة يحبها الله تعالى وتستنزل رحمته وفضله.

وعلى العموم: قيمة العبادات في ما تتضمنه وما تستنبطه من «الحال».

وهذه الأحوال هي منازل رحمة الله.

العلاقة التبادلية بين العبادات والأحوال

والعلاقة بين العبادات والأحوال علاقة تبادلية(جدليّة)، وهي علاقة معروفة ورائجة في الثقافة الإسلامية، فإنّ الدعاء يحسّس الإنسان بفقره وحاجته واضطراره إلى الله، من جانب، ويلجئه هذا الإحساس، من جانب آخر، إلى الدعاء.

اقتران الحال بالوعي

والأحوال تقترن، عادة وغالباً، بالوعي، فالحاجة والفقر والاضطرار إلى الله لن يكون أي منهما في حد نفسه، حالاً إلا عندما يعيه الإنسان وذلك لأن الإنسان لا يخلو من الحاجة والفقر

والاضطرار إلى الله، فلا يختلف الناس في وجود هذه الأمور وإنما يختلفون في وعيها وفي درجات هذا الوعي.

فكلما كان الإنسان أكثر وعياً لحاجته وفقره واضطراره إلى الله يكون أقرب إلى رحمة الله، وتكون الرحمة الإلهية أسرع إليه.

وليس معنى ذلك أن الرحمة الإلهية لا تنزل إلاّ على موضع الوعي، فإنها تنزل على مواضع الفقر والحاجة والاضطرار من دون وعي، ومن دون سؤال، ومن دون معرفة الله تعالى.

وقد ورد في دعاء شهر رجب: «يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله، ومن لم يعرفه تحنناً منه».

ولكن شتان بين نزول الرحمة المقترن بالوعي ونزولها المقترن بذلك وارتكاب المعصية ليس من منازل رحمة الله بل من موجبات مقت الله وغضبه، ولكن الاعتراف بالذنب من منازل رحمة الله كما ذكرنا.

و «الإعتراف بالذنب» هو وعي قبح عمل الإنسان في معصية الله تعالى. وهذا الوعي هو مصدر الإحساس بـ «الندم من الفعل» و «الخجل من الله»، وبقدر وعي الإنسان لقبح فعله في معصية الله تعالى يكون إحساسه بالندم من فعله وبالخجل من الله تعالى.

«الندم» و «الخجل» من منازل رحمة الله. وحقارة الإنسان وصغاره تجاه الله تعالى ليس في حد نفسه حالاً، ولا من منازل رحمة الله، ولكن إحساس الإنسان بالحقارة والدونية والصغار تجاه الله تعالى وبين يدي الله من منازل رحمة الله.

فإذا أحسّ الإنسان بهذه الحقارة والضعة والدونية ذلّ بين يدي الله، وتواضع له تعالىٰ.

وهذا الذل والتواضع من منازل رحمة الله، ولا يختلف الناس في الحقارة والضعة والدونية تجاه الله تعالى، وإنما يختلف الناس في وعي هذه الحقارة والدونية، وفي درجات هذا الوعي.

ويستنزل الناس من رحمة الله بقدر وعيهم لضعتهم وحقارتهم بين يديه. والتمتع بنعم الله تعالى لا يستنزل رحمة الله تعالى، والحال هو وعي نعم الله، وعلى قدر الوعي يشكر الإنسان ربه سبحانه، وعلى قدر هذا الشكر ينزل الله تعالى رحمة على عبده.

يقول تعالى: ﴿لئن شكرتُمْ لأزيدنَّكُم﴾.

وهكذا تقترن سائر الأحوال بـ «الوعي» فالحب وعي، والإيثار وعي، والشوق وعي، والأنس بالله وعي، والصبر وعي، والتضرع وعي.

كسب الحال والمحافظة عليها

وهذه الأحوال كثيرة، كالذكر والعبودية، والطاعة، والتسليم، والرضا، والتواضع لله، والمسكنة، والتذلّل، والشكر والفقر، والتضرع، والإجابة (التبلية)، والحب، والشوق، والأنس، والثقة، والتوكل وغير ذلك. وهذه الحالات هي منازل رحمة الله تعالى في حياة الإنسان. وعلى الإنسان أن يكسب هذه الحالات أولاً، ويحافظ عليها ثانياً، وينمّيها ثالثاً، ويستثمرها رابعاً،

ولكل ذلك أصول ومنهج وقانون في منهج التربية والتزكية في الإسلام. وإذا عرفنا أن هذه الحالات منازل رحمة الله تعالى في حياة

الإنسان نعرف أنَّه لا ينال الإنسان من رحمة الله إلاّ بقدر ما يكسب من هذه الأحوال.

إذن من الضروري أن يعرف الإنسان كيف يكسب هذه الأحوال، ومن رزقه الله الحال أعطاه كل شيء، ومن حُرِمَ منها لم ينفعه شيء.

وما أجمل تعبير الشاعر الحكيم الرومي

لا تطلب الماء
ولكن اطلب الظمأ
حتّى يتفجر الماء
من كل جوانبك

فإن من رزقه الله الظمأ، وهي حالة الاضطرار إلى الله والانقطاع إليه في طلب الماء، فجَّر الله تعالى الماء من كل جوانبه، كما يقول هذا الحكيم.

ولا تقل قيمة المحافظة على الحال عن كسبها، فقد يكسب الإنسان الحال بمشقة وعناء، ويضيعها ويفرّط بها.

فلا بد من أن يحس الإنسان، ثانياً، بضرورة المحافظة على هذه الأحوال.

ولا بد، ثالثاً، من أن ينمِّي الإنسان هذه الأحوال... فإن الأحوال لا تركد على حال، فإما أن تنمو وتقوى أو تذبل وتضعف.

ولا بد، رابعاً، من استثمار هذه الأحوال فإنها، كما ذكرنا، منازل رحمة الله، فإذا رزق الله تعالى عبداً من عباده بعض هذه المنازل، عليه أن يستثمره سريعاً بالدعاء والإلحاح في الدعاء.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة»(١).

وعن أبي بصير، عن أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «إذا رقّ أحدكم فليدعُ، فإن القلب لا يرق حتى يخلص»(٢).

وعن أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:

«إذا اقشعر جلدك، ودمعت عيناك فدونك دونك فقد قصد قصدك»(٣).

«إن أقرب ما يكون العبد، من الرب عز وجل وهو ساجد باك»(٤).

المُعدات والعوامل الّتي تكسب الإنسان الحال

والعوامل والمعدات الّتي تكسب الإنسان الحال كثيرة، لا يسعنا استعراضها واستيعابها ودراستها في هذا المقال.

ومن هذه المعدات «الزمان» و«المكان»، فإن لهما دوراً في تثبيت الحال وتعميقها.

الزمان مثل الأسحار: ﴿وبالأسحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات/١٨]. ﴿والمُسْتَغْفِرينَ بالأَسحارِ﴾ [آل عمران/١٧].

---

(١) بحار الأنوار، ٩٣/٣١٣.
(٢) وسائل الشيعة، ٤/١١٢٠، ٥/٨٧٦.
(٣) المصدر نفسه، ٤/١١٤١، ٢/٨٧٦٢.
(٤) المصدر نفسه، ٤/١١٢٢، ٨٧٧١.

وليلة القدر وليلة الجمعة ويوم عرفة وشهر رجب تصب رحمة الله صبا، شهر رمضان ربيع الحال.

والمكان مثل وادي عرفة والمساجد ﴿في بيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيها اسْمُهُ﴾ [الذاريات/ ٣٦].

وقد كان المكان الذي انطلق فيه رسول الله ﷺ في المعراج هو المسجد الحرام.

﴿سُبحان الذِي أَسْرَىٰ بعبدِهِ ليلاً من المَسْجِد الحرامِ...﴾ [الإسراء/ ١].

وقد كان المكان الذي أسرى فيه رسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى ثم إلى السماء (المسجد الحرام) ﴿سُبحانَ الذي أسرى بعبدِهِ ليلاً من المَسْجدِ الحرامِ إلى المَسْجِد الأَقصىٰ الذي باركنا حولَهُ﴾ [الإسراء/ ١]. . وأما العبدُ الصالح يونس عليه السلام فقد انطلق من بطن الحوت إلى الله تعالى.

ومجالس عزاء الحسين عليه السلام من المواضع التي تنزل عليها رحمة الله تعالى، فإن هذه المجالس ترقق القلوب، وتعطف النافرة منها إلى الله عز وجل.

وظروف الابتلاء والشدة في حياة الإنسان تعد الإنسان للتضرع إلى الله، والتضرع إلى الله من منازل رحمة الله.

يقول تعالى: ﴿وما أرسلنا في قَريةٍ من نَّبِيٍّ إلاَّ أَخَذْنا أهلَها بالبأْساءِ والضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف/ ٩٤].

والذكر والحمد والاستغفار والصلاة والسجود بين يَدَيْ الله، والصلاة على محمد وآل محمد، تكسب الإنسان الإقبال على الله، وهو حال من منازل رحمة الله.

روي، عن أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام «أن رجلاً دخل المسجد، فصلى ركعتين، ثم سأل الله عز وجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عجل العبد ربه، وجاء آخر، فصلى ركعتين ثم أثنى على الله عز وجل، وصلى على النبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سَلْ تُعْطَ»[1].

ومن الأمور الّتي تكسب «حال» الإقبال على الله ورقة القلب الانكسار والظلامة، فإن الإنسان إذا تعرض للظلم، لم يحجب دعاءه عن الله شيء.

ولا يحجب شيء دعاء المظلوم عن الله تعالى.

عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قال: «اغتنموا الدعاء عند خمسة مواطن: عند قراءة القرآن، وعند الأذان، وعند نزول الغيث، وعند التقاء الصفين للشهادة، وعند دعوة المظلوم، فإنها ليس لها حجاب دون العرش»[2].

وقد يكون الإنفراد والوحدة من عوامل كسب الحال. كما في صلاة الليل، وقد يكون الإجتماع كما في صلاة الجمعة والجماعة والحج ولكل من «الوحدة» و «الإجتماع» تأثير خاص في أحوال الإنسان. فمن الأحوال ما لا يتحقق إلاّ بالإنفراد والوحدة، ومن

---

(١) المصدر نفسه، ٤/١١٢٦، ٧٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ٤/١١١٥، ٨٧٤٢.

الأحـوال مـا لا يستحـق إلاّ بـالاجتمـاع . . . وطبيعـي أنّـا نقصـد بالإجتماع الاجتماع الموجّه كاجتماعات المؤمنين ومجالسهم، ومثل الحج وصلاة الجماعة وسائر الاجتماعات الموجهة .

ولكل من «الوحدة» و «الإجتماع» ما يخصه من الحال : ما لا يمكن تحقيقه إلاّ في جو الانفراد والوحدة، ما لا يمكن تحقيقه إلاّ في جو الإجتماع .

ولا بد للإنسان في تعامله مع الله من هذا وذاك معاً .

ولذلك نجد أن منهج التربية والتزكية في الإسلام يوفر الفرصة «المادية» للإنسان لهذا أو ذاك معاً .

ومن عوامل كسب الحال قراءة «القرآن» و «الصوم» و «العمل الصالح» ، فإن العمل الصالح يعدّ الإنسان للإقبال على الله .

ومن عوامل الحال الحمد في سبيل الله ، فإن أي جهد يبذله الإنسان في سبيل الله يكسبه حال الإقبال عليه .

وهناك طائفة من العوائق التي تعيق الحال وتبطئ نموّه .

من هذه العوائق الاستغراق في الحياة الدنيا ، حتّى في الحلال منها ، والانشغال بها حتّى في دائرة الحلال .

ومن هذه العوائق : الذنوب والمعاصي ، وحبُّ الدنيا ، ومنه أقل الحرام . ومصاحبة الفسّاق .

اعتراف العبد الصّالح بالظلم

ونعود، مرة أخرى، إلى اعتراف العبد الصالح ذي النون بالظلم. ويقتصر النص على الإعتراف بالظلم، ولا نجد في هذا

النص ذكراً للاستغفار بعد الاعتراف، كأنما الاعتراف يتضمن الاستغفار أو يكفي عنه، ويستنزل بنفسه رحمة الله تعالى على عبده.

و «الإعتراف بالظلم» بين يدي الله ليس من أسباب تعقيد النفس بل الأمر بالعكس فإن الإعتراف بالظلم يحل العقد النفسية التي تستتبع الذنب.

والذنوب، من دون الإعتراف والندم والخجل تتحوّل إلى صدأ و «دَرَن» في النفوس، وتحول إلى طبع وختم على القلوب وقسوة لها.

فإذا اعترف الإنسان بذنوبه وظلمه بين يدي الله، أزال هذا الإعترافُ الآثارَ السلبية التي تتركها الذنوب في نفس الإنسان، ورَقَّ قلبه، وزالت عنه القسوة والطبع والختم.

فإن الذنوب تتحول إلى آثار سلبية ومخربة وعقد في نفس الإنسان إذا تجاهلها صاحبها واستهان بها.

أما إذا اعترف صاحبها بقبح ما ارتكبه من ظلم وذنب، واستشعر هذا القبح واعترف به، وتحول الذنب في نفسه إلى حالة من «الندم من فعله» و «الخجل من الله» فإن الذنوب عندئذ تتحول إلى حسنات. **﴿فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سيئاتهم حَسَناتٍ وكانَ اللهُ غفُوراً رَحِيماً﴾** [الفرقان/ ٧٠].

هذا، ولا بد من التنبيه، في نهاية هذه الجولة، من رحلة العودة إلى الله تعالى، مع العبد الصالح يونس، ذي النون، نبي الله عليه السلام: إلى أن «يونس»، ذا النون، نبي معصوم، عصمه الله من

كل ذنب ـ من الصغائر والكبائر ـ إلا ما قد يقع من أولياء الله الصالحين وعباده الذين اصطفاهم تعالى لنفسه من «خلاف الأولى» و«خلاف الأجدر»، فيلجأون إلى الله تعالى بالاستغفار والاعتذار.

ونستغفر الله، ونعتذر إلى العبد الصالح نبي الله، ذي النون عليه السلام، إذا كان في تحليلنا لهذه الآية الكريمة ما يوحي بالمس من عصمته وموقعه الذي وضعه الله تعالى فيه.

وسلام الله على ذي النون، ورزقنا اللهُ هديَه، ووعيه، في الدنيا وشفاعته في الآخرة.

المحتويات

كلمة أولى ٣
في رحاب قصة ذي النون عليه السلام ٤
لا إله إلاّ أنت (١) ٦
خطاب العبد لربه ٦
حلقات التوحيد الثلاث ٨
لا إله إلاّ أنت ٨
توحيد المآب والمفزع ٩
وعي توحيد المعاذ ١٠
أدب العودة إلى الله ١٣
عناصر أدب العودة إلى الله ١٤
النصوص الجامعة لمفردات أدب العودة إلى الله ١٥
مفردات أدب العودة إلى الله في النصوص الإسلامية ١٦
١ ـ الاعتراف والإقرار ١٧
٢ ـ الاعتذار ٢٠
٣ ـ الإستحياء ٢٣
٤ ـ قبول العتبىٰ ٢٣
٥ ـ حسن الظن بالله ٢٤
٦ ـ الذلّ والإنكسار ٢٨

٧ ـ الطمع في رحمة الله ٣٠
٨ ـ الخوف من الله ٣١
٩ ـ العزم على العودة ٣٢
١٠ ـ الحزن والبكاء ٣٥
١١ ـ الإسترحام ٣٧
١٢ ـ الفرار إلى الله والإستعاذة به ٣٩
١٣ ـ الاستغفار ٤٠
١٤ ـ الاضطرار إلى الله ٤١
١٥ ـ الندم ٤١
سبحانك (٢) ٤٢
صفات الجمال والجلال ٤٢
التسبيح لله ٤٢
الإعتراض المكتوم في العلاقة بالله ٤٣
القضية الأولى ٤٤
القضية الثانية ٤٦
العلاقة بالله في منهج التربية الإسلامية ٤٩
تعميق الشعور بالإثم والظلم في منهج التربية الإسلامية ٥٠
المراحل الأربع في آية ذي النون ٥١
الاعتراض والاعتراف ٥٢
إنّي كنت من الظالمين (٣) ٥٤
الأحوال ٥٤
الأحوال منازل رحمة الله ٥٤

قيمة العبادات في الأحوال ٥٥
العلاقة التبادلية بين العبادات والأحوال.............. ٥٨
اقتران الحال بالوعي ٥٨
كسب الحال والمحافظة عليها ٦٠
المعدات والعوامل التي تكسب الإنسان الحال ٦٢
اعتراف العبد الصالح بالظلم ٦٥

* * *

هذا الكتاب

يبحث هذا الكتاب في حال الدعاء، وهي الحال التي يعود فيها العبد المؤمن إلى ربّه ويخاطبه مباشرة من دون حجاب. ويتخذ من قصّة النبي يونس بن متى (ع) التي تروي رحلة عودته إلى الله نموذجاً لهذه الحال التي تؤول بالعبد المؤمن إلى النجاة.

الغدير
للدراسات والنشر
حارة حريك ـ بناية البنك اللبناني السويسري
هاتف :٠١/٥٥٨٢١٥ ـ تلفاكس : ٠١/٢٧٣٦٠٤
ص . ب : ٢٤/٥٠ ـ بيروت ـ لبنان